

المشروع الحضاري

نحو فهم جديد للواقع

أ. د. عبد الكريم بكّار

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



نَحْوَ فَهْمٍ جَدِيدٍ لِلوَاقِع

تأليفُ

أ. د. عَبْدالكَرِيم بَكَّار

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى
لدار السلام
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

بكار ، عبد الكريم .
المشروع الحضاري نحو فهم جديد للواقع /تأليف عبد الكريم بكار. - ط ١ - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١٠م .
٢٢٤ ص ؛ ٢٠ سم .
تدمك ٧ ٨٩٠ ٣٤٢ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - التقدم الاجتماعي .
أ - العنوان.
٣٠١,٢٤٢

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م
تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م عن عشر الجائزة تتويجا لعقد ثلث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الموضوعات

* * *

المشروع الحضاري (١)

كثر الحديث في السنوات العشر الأخيرة عن المشروع الحضاري للأمة، وكثرت معه الشكوى من أن العرب والمسلمين لا يملكون في العصر الحديث مشروعًا حضاريًّا يتخذون منه خارطة ودليلًا للنهوض والتقدم. ويؤكد كثير من المفكرين والمثقفين على أن المدخل الحقيقي لأي تقدم ننشده يجب أن يبدأ ببلورة المشروع الحضاري الذي يلائم خصوصيتنا، ويخدم أهدافنا وتطلعاتنا. ويتطور الأمر لدى بعض مثقفينا، فيتخذون من عدم وجود المشروع المنشود ذريعة للتقاعس عن القيام بأي عمل صغير بحجة أن ذلك لا يجدي شيئًا ما لم يكن جزءًا من رؤية حضارية شاملة ومتكاملة.

وأعتقد أننا واهمون في تصور (فيزياء) التقدم ومحرِّضاته؛ حيث أرى أن المطالبة ببلورة مشروع حضاري لا تعدو أن تكون سفسطة كلامية، لا تنطوي على أي مضمون ذي قيمة حقيقية؛ ونقول في تفنيد هذه الفكرة: إذا كان المراد بالمشروع الحضاري مجموعة الأصول والمبادئ الكبرى التي تحكم عمل الحكومات والمؤسسات، وتنظِّم العلاقات بين الناس، وتفعِّل جهود الأفراد في تجويد الأداء، فإن هذا كله متوافر في الإسلام عقيدة وشريعة وآدابًا.

وعلى أساسه قامت حضارة الإسلام المجيدة. وحين توقفت تلك الحضارة عن العطاء كانت تلك المبادئ والأصول تدرَّس في الكتاتيب والمدارس والحلقات التعليمية؛ بل إنه لم يكن يُدرَّس غيرها فيها - في كثير من الأحيان - ولم يكن في الساحة الإسلامية العريضة ما ينافسها.

وإذا كان المراد بالمشروع الحضاري مجموعة المفاهيم المترابطة التي نستخدمها في كشف الواقع، ونخطط بوساطتها للمستقبل في إطار المبادئ والأصول الكبرى، فإن مشكلات كبرى تواجهنا في البلورة لتلك المفاهيم وفي تطبيقها وتعميمها أيضًا. ومن تلك المشكلات أن الخرائط الفكرية هي أمور تجريدية، يصعب على معظم الناس تصورها، وهي قبل ذلك معطيات جزئية وفرعية يختلف فيها النظر، ويُنهكها الاجتهادُ وتفاوتُ زوايا الرؤية، مما يجعل اتفاق المفكرين عليها شبه مستحيل.

أضف إلى ذلك أنه ليس لدينا ما يكفي من الآليات والأدوات لتعميم ما يتبلور من تلك المفاهيم؛ نظرًا لاتساع رقعة العالم الإسلامي وتناثر كثير من المسلمين في بقاع الأرض الشاسعة. وإذا فرضنا جدلًا تجاوز كل ما ذكرناه من مشكلات فإننا لا نستطيع تجاوز التعديلات والتغييرات التي تصيب الأفكار والمفاهيم حين تدخل في حيز التطبيق؛ حيث إن التفاوت الشديد للأوضاع والظروف - التي ستطبق فيها

تلك المفاهيم - سيجعلها تفقد وحدتها ونقاءها وفاعليتها.
وكل المذاهب الكبرى التي انتشرت في العالم قديمًا وحديثًا وقفت عاجزة أمام تجاوز هذه العقبة.

إن المشروع الحضاري ليس شيئًا يدرسه الطلاب في المدارس والجامعات؛ بل إنه ليس مسطّرًا في كتاب أخضر أو أحمر يحفظه الطلاب تحت الأشجار، إنه شيء يستعصي على التعبير والتجسيد؛ لأنه روح يسري في كيان الأمة، ويجتاح كيان كل فرد من أفرادها، إنه رموز تستوطن اللاشعور والطبقات العميقة في اللاوعي.

إن المشروع الحضاري هو الطريقة التي يجيب بها أبناء أمة من الأمم على تحديات الواقع وأسئلة التاريخ، وتلك الطريقة أو الكيفية تميز نشاط الحكومات في كبرى المسائل، كما تميز نشاط الأمهات في البيوت، والعمال في الحقول.

لو أننا سألنا الناس في أوروبا واليابان وأمريكا... عن مفردات المشروع الحضاري لديهم وعن أسرار التقدم الذي يحرزونه على الصعيد الصناعي والمادي، فإن العامة منهم سوف يستغربون منك ذلك السؤال، ولا يفهمونه. وأما الخاصة - وخاصة الخاصة - فإنهم سيحاولون اكتشاف الجواب، وسيختلفون أيما اختلاف حتى كأنهم لم يجيبوا بأي شيء.!

الذين شيدوا الحضارة الإسلامية أو الصينية أو الرومانية

لو أمكن طرح السؤال عليهم لما اختلف موقفهم عن موقف معاصرينا.

نعم يمكن لدولة أن تضع مشروعًا نهضويًّا محدودًا، تقوم بتنفيذه في مدة محدودة، وفي مجالات معينة، كما فعلت ماليزيا في خطة (٢٠٢٠)، وحين ترقب فهم الناس لتلك الخطة، فستجده متفاوتًا، كما ستجد أن الدولة لم تحصل إلا على شيء مما تريد، كما هو الشأن في ماليزيا أيضًا.

لكن هناك مشروع حضاري شخصي، يمكن لمعظم الناس أن يقوموا بتصميمه وتنفيذه.

* * *

المشروع الحضاري الشخصي (٢)

نفينا وجود شيء اسمه المشروع الحضاري، وبسطنا الأدلة على ذلك. سأتحدث عن المشروع الحضاري الشخصي بوصفه إمكانية قابلة للتحقيق وقابلة للتطبيق من لدن عدد ضخم من الناس.

دعونا نقول: إن العولمة التي تغزو العالم اليوم هي تعبير عن فائض ثقافي واقتصادي تحقق لدى الشعوب والدول المستفيدة من العولمة. ولولا وجود ذلك الفائض لما كانت العولمة موجودة بهذا الزخم الذي هي عليه الآن. ومصدر القوة الأساسي لدى تلك الشعوب لا يكمن في دهاء حكوماتها، ولا في ضخامة ثرواتها، وإنما في نوعية أفرادها؛ حيث إنك تجد الإنسان هناك أكثر فاعلية وأحسن أداء وتنظيمًا، ويملك من روح المثابرة والدأب ما لا يملكه غيره. إن هناك حقيقة كثيرًا ما تغيب عن أذهاننا؛ هي أننا لا نستطيع أن نبني أمة قوية من أشخاص ضعفاء. وإن الذين يحلمون بأمة قوية دون أن يروا مستوى الفرد فيها يتحسَّن ويترقى سيظلون يحلمون ويحلمون في ظل أوضاع تزداد سوءًا.!

لا يخفى عليكم أن وعينا مفتون بالإنجازات الكبيرة دون أن يكون لدينا تساؤل عن كيفية تحقيق تلك الإنجازات،

وعن مدى امتلاكنا الإمكانات والأدوات التي يتطلبها ذلك. وأعتقد أن قلة المثقفين ثقافة راقية وقلة الرواد فينا تجعلنا نخضع لهيمنة (الثقافة الشعبية)، فنظل محكومين بما هو سائد، ويكون مدى الرؤية لدينا ضيقًا، كما تكون طموحاتنا محدودة.

لهذا؛ فإن فكرة المشروع الشخصي ما زالت غريبة في مجتمعاتنا ولدى معظم الناس، مع أنه قد يكون الأكثر يسرًا والأقل تكلفة في إنقاذ الأمة من الحالة الحرجة التي صارت إليها في ظل تكالب الأعداء عليها.

المشروع الحضاري التزام شخصي بشيء يكرِّس له المرء حياته كلها أو بعضها. وهو في سبيل نجاح مشروعه يتنازل عن بعض الرغبات وعن بعض المصالح، ويذوق طعم العناء.

المشروع الحضاري الشخصي رؤية تتكون من الهدف والطاقة والإمكانية والبعد الزمني، ويتجسد ذلك كله في خطة عملية واحدة. ومهما كانت نوعية مشروع الواحد منا فينبغي أن يكون شيئًا يستحق التضحية، وأن يكون على صلة بهدفنا الأسمى؛ وهو الفوز برضوان اللَّه - تعالى - ويجب إلى جانب هذا وذاك أن نبرمج حياتنا، ونرسم أهدافنا من أفق حاجات المجتمع المسلم؛ أي نتوقع من مشروعنا الشخصي المساهمة في خدمة أولوية اجتماعية أو سد ثغرة ملحَّة ومهمَّة.

وأحب أن أقول: إن الشعور بالتفاهة والفراغ والسأم الذي بات يجتاح كثيرًا من الناس ما هو إلَّا نتيجة حتمية لعدم وجود شيء في حياتهم يستحق الاهتمام. ومن غير المتوقع أن نستغل طاقاتنا، وأن نشغل أوقاتنا على النحو المطلوب من غير ذلك المشروع.

آفاق المشروع الشخصي في حالة من الاتساع والتنوع المستمرين، وبمجرد أن يتفتح الواحد منا على الواقع بما يتيحه من فرص وتحديات ومطالب متجددة فإنه سيجد أمامه الكثير الكثير مما يمكن له أن يهتم به.

وعلى سبيل المثال، فقد يتفرغ إنسان لبلورة أفكار حول تحرير طاقات الشباب، وإجراء بحوث ودراسات حول الأساليب التي تساعدهم على ذلك. وقد يتفرغ أحدنا للرد على أفكار خاطئة تجتاح المجتمع في مجال من المجالات. وقد يتفرغ لرعاية جمعية أو مؤسسة أو كلية تقدم للناس ما ينفعهم.

المشروع الحضاري الشخصي قد يكون تطويرًا لآلة يعمل عليها تقني، وقد يكون تطويرًا لمعدَّة أو اكتشافًا لأسلوب في الإدارة أكثر نجاعة مما هو سائد، وقد يكون المشروع الشخصي عبارة عن تقديم نماذج متفوقة في مجال الالتزام أو خدمة الناس أو حسن التدبير أو المحافظة على الوقت.... ولننظر إلى الخير العظيم الذي نتج عن تخصص بعض علمائنا بمعالجة بعض المسائل أو التبحر في بعض التخصصات.

إن على كل واحد منا أن يبحث عن دوره الأمثل في هذه الحياة المحدودة، وأن يتساءل باستمرار:

ما الشيء الذي أستطيع أن أفعله، ولكني لا أفعله؟ وما العمل الذي إن أديته بطريقة جديدة تكون نتائجه أفضل؟

المطلوب دائمًا التخصص في مسألة حيّة نافعة، وامتلاك مثابرة وإصرار كإصرار الأَرَضَة على بذل الجهد المتواصل؛ فالثابت اليوم أن كل الإبداعات والإنجازات الكبرى لم تكن وليدة ومضات ذهنية فحسب؛ وإنما نتيجة الدأب والاستمرار في المتابعة الطويلة الأمد، وتخطي العقبات واختراق الأفكار القديمة.

إني أعتقد لو أن (٥٪) من أبناء أمة الإسلام عملوا بهذه الفكرة لاختلف الكثير من ملامح حياتنا.

فهل من مجرب؟

* * *

في كل الأحوال (١)

إن إنجازاتنا وعطاءاتنا تخضع لثلاثة عوامل أساسية؛ هي:

١ - ما ورثناه عن آبائنا وأجدادنا من خصائص عقلية ونفسية وجسمية.

٢ - البيئة التي نعيش فيها بما تشتمل عليه من مفاهيم وأعراف وتقاليد وَبُنًى تحتية ومرافق عامة...

٣ - الجهود الشخصية والخاصة التي نبذلها في تثقيف عقولنا، وتزكية نفوسنا، وصقل مهاراتنا، واستثمار الفرص المتاحة لنا.

ولا يخفى أن بين هذه العوامل الثلاثة علاقة جدلية مستمرة؛ فالذكاء المتفوق والقدرات الذهنية الممتازة، تساعد المرء على أن يستفيد على أحسن وجه من المعطيات التي توفرها البيئة، كما أنها تجعله يدرك بسرعة حدود إمكاناته الحقيقية وطبيعة التحديات التي يلاقيها، والطريقة المثلى لمواجهتها والتصرف حيالها.

البيئة الجيدة تجعل عمل الناس أسهل، وتوفر لهم الظروف التي تساعدهم على التفوق والارتقاء وهكذا...

والذي نستفيده من هذا هو أن التفوق في الجهد أو البيئة

أو الموروث الجيني، سوف يخفف من أضرار القصور في الجانبين الآخرين. وإن أي قصور في أي جانب أو عامل من هذه الثلاثة سيؤثر سلبًا في أداء العاملين الآخرين.

وأعتقد أن التكامل والتفاعل بين ما ذكرنا يشكِّل مظهرًا من مظاهر ابتلاء اللَّه - جلَّ وعلا - لنا في هذه الحياة؛ حيث إن إمكانات الارتقاء والتقدم ستظل موجودة مهما كان الموروث الجيني سلبيًا وضعيفًا أو كانت البيئة صعبة وغير مواتية؛ وذلك من خلال تنمية الإمكانات الشخصية، وبرمجة الوقت وتحديد الأهداف، واكتساب المهارات؛ وقبل ذلك كله العبودية الحقة للَّه - تعالى - والاستعانة به والتأهل لتوفيقه وفيوضاته غير المحدودة.

ولو أننا تأملنا في سير أولئك الذين صاغوا أمجاد هذه الأمة، وشيدوا صرح حضارتها لوجدنا صدق ما نقول.

وأحب هنا أن أبلور المفهومات الثلاثة الآتية:

أولًا: ما دامت المحصلات النهائية لكل جهودنا الدعوية والإصلاحية والتعليمية خاضعة لموروثاتنا عن الآباء والأجداد، وخاضعة للبيئة التي تعيش فيها، وللجهد اليومي الذي نبذله، وما دامت كل هذه الأمور لا تكون - أبدًا - حدِّية وكاملة فإن المتوقع آنذاك أن تكون النتائج التي نحصل عليها مشوبة دائمًا بالنقص والقصور، وستظل دائمًا أقل مما نريد؛ فأنت لا تستطيع أن تصل إلى حلول كاملة في وسط غير كامل.

وستظل هناك فجوة بين طموحاتنا وبين ما يتحقق على الأرض؛ هذا يعني أيضًا أننا سنظل نشكو ونشكو، وكأن الوعي البشري اخترع الشكوى من سوء الأحوال، ليتخذ منها محرِّضًا على التقدم.

وإذا تتبعنا هذه السلسلة من الإحالات والاستنتاجات فسنصل إلى الاعتقاد بأنه لن يكون في هذه الدنيا لأي أمة من الأمم أو جماعة من الجماعات أو فرد من الأفراد نصر حاسم ونهائي، لا يقبل الجدل ولا الشك والنقد؛ ولهذا فإن الذين يحلمون بانتصارات نقية وتامة سيظلون يصابون بصدمات الإحباط وخيبات الآمال.!

ثانيًا: إذا كان الأمر على هذه الصورة فهذا يعني أننا لن نصل أبدًا إلى اليوم الذي نعتقد فيه أننا قد حصلنا على البيئة المثلى للعمل والإنجاز ولا على الأدوات التي نحتاجها لتحقيق أقصى الطموحات. وسنظل نشعر بوجود درجة من المجازفة والمخاطرة عند اتخاذ أي قرار حاسم في أي اتجاه. وهذا يجعلنا نبلور مفهومًا جوهريًا، هو: « اعمل ما هو ممكن الآن، ولا تنتظر تحسن الظروف ».

وهذا المفهوم يقوم على مسلَّمتين هما:

١ - هناك دائمًا إمكانية لعمل شيء جيد لأنفسنا وديننا والناس من حولنا.

٢ - مهما تحسنت الظروف فإنه سيظل هناك من يمكنه أن يظن أن الظرف المطلوب توافره من أجل الإنجاز لم يتهيأ بعدُ.

ثالثًا: هناك مسلمون كثيرون مصابون بفقر شديد في الخيال؛ فهم خاضعون لمقولات مستعجلة أطلقها أعلام ومشاهير لم تنضج رؤيتهم لفيزياء التقدم ولا لطبيعة العلاقات التي تحكم قوى التحدي والاستجابة؛ ومن ثَمَّ فإنهم قد صاروا أشبه بمن وضع القيد بنفسه في رجليه في أجواء عاصفة وخطرة!.

إن الخيال نعمة كبرى من اللّه - جل وعلا - وقد كان نابليون يقول: « إن مؤسساتنا مصابة بمحدودية الخيال، ولولا الخيال لكان الإنسان بهيمة ». ويكفيني هنا لفت النظر إلى مسألة تتجلى فيها محدودية الخيال وعقمه الشديد:

من الواضح أن جمهرة غير قليلة من أبناء الجماعات والدعوات الإسلامية يعتقدون أن تطورات مذهلة سوف تطرأ على الحياة الإسلامية إذا قامت الدولة (الحلم) التي تسيِّر شؤون الناس؛ ولهذا فإنهم عطَّلوا الكثير من الجهود، وأضاعوا الكثير من الفرص، وعلقوا توازن أعداد هائلة من الناس على تحقيق ما يتطلّعون إليه! بل إن الأمر تجاوز ذلك إلى ما هو أسوأ؛ وهو الاعتقاد بأنهم لا يستطيعون إنجاز أي شيء ذي قيمة إلا في ظل دولة إسلامية راشدة. وتلك الدولة ينبغي أن تكون من الطراز العمري، فإذا كانت من مستوى

الحكومات الأموية أو العباسية، فربما كانت لا تستحق أقل من الثورة!.

هؤلاء الناس يتخيلون أن الحكومة الراشدة التي يحلمون بها سوف تكون على درجة عالية من الإخلاص والخلق والعلم وحسن التدبير والحنكة في تحفيز الجماهير على الكدح والعطاء، وعلى درجة عالية من الخبرة في حل المشكلات الداخلية ومواجهة التحديات الخارجية. مع أنهم لا يقولون لنا أين ستكتسب (الدولة الحلم) هذه الخبرات الخطيرة، وفي أي بيئة ستتكوَّن لدى أعمدتها هذه الصفات والأخلاق والمهارات الفذة والعجيبة، وهم ما فتئوا يشكون من سوء الأحوال وتدهور الزمان!.

في ظل هذه الدولة سوف يحدث ما يشبه الزلزال في النفوس والمجتمعات والعلاقات، والتوجهات السائدة: في ظل تلك الدولة العجيبة سوف ينشط الكسول ويتعلم الجاهل، ويبذل الشحيح، ويقلع بذيء اللسان عن التفوه بالألفاظ القبيحة، ويكف مدمنو المخدرات والمكيفات عن تناولها، وسوف يحاول المدرس غير الكفء صقل مهاراته وإثراء ثقافته... كما أن العلمانيين والليبراليين أصحاب المصالح المضادة سوف يسلِّمون لتلك الدولة (المعجزة) بالنزاهة والكفاءة معًا؛ ولذا فإنهم سوف يسلمون لها القياد. والدول المناوئة في الخارج سترى أنه لا فائدة ترتجى من وراء مقارعة

تلك الدولة؛ ولذا فإنها سوف تتجاهلها أو تهادنها...

وهكذا ستحدث تغيرات كونية هائلة لم تحدث في أي مرحلة من مراحل التاريخ. وحتى يحدث كل ذلك فإن مما لا شك فيه أن طينة تلك الدولة ينبغي أن تكون خاصة ولا مثيل لها ما دامت ستحقق إنجازات عديمة المثيل!.

وأنا أجزم أن تلك الجمهرة من الحالمين ستنقسم تجاه أفضل دولة إسلامية يمكن أن تقوم في أي مكان من الأرض إلى أقسام عدة:

- قسم يعمل معها بكفاءة وإخلاص. وهذا القسم قليل في أيِّ زمان وأي مكان.

- وقسم يتمتع بالكفاءة لكن ينقصه الإخلاص والاستقامة.

- وقسم ثالث يخلص، لكنه لانعدام خبرته لا يعرف كيف يخدم الدولة والأمة.

- أما القسم الرابع فهو قسم منتفع وصولي، ليس من هؤلاء ولا أولئك.

- والقسم الخامس قسم معارض يرى أن الدولة التي سعى إلى إقامتها قد خانت رسالتها، وانحرفت عن مبادئها، فهو منهمك في ردها إلى المسار الصحيح.

- أما القسم الأخير فهو القسم الثائر الذي صارت أمنيته التخلص من تلك الدولة بأي وسيلة من الوسائل ولو كانت

استخدام العنف وإشعال الحرب الأهلية!!

هذه الأقسام لم نأت بها من نسج الخيال، بل هي مما عرفناه من سنن اللَّه - جلّ وعلا - في الخلق، ومما فهمناه من طبائع الأشياء، وما وجدناه ونجده عند قراءة أي ثورة من الثورات التي تمكنت من الوصول إلى الحكم في بلاد إسلامية أو غير إسلامية.

* * *

في كل الأحوال (٢)

إن موروثاتنا النفسية والجسمية... عن الآباء والأجداد وجهودنا الشخصية - بالإضافة إلى البيئة التي نعيش فيها - تشكل المؤثرات الجوهرية في عطاءاتنا وإنجازاتنا. ومهما ساءت الظروف، وتعقدت الأوضاع؛ فستظل هناك إمكانية لعمل شيء ما.

من المهم أن نعتقد في البداية أن أي جهد يبذله الواحد منا على صعيد إصلاح أحواله الشخصية والارتقاء بذاته، يصب بصورة من الصور في مصلحة أمته؛ حيث لا يمكن أن نبني أمة صالحة من أشخاص فاسدين، ولا مجتمعًا قويًّا من أفراد ضعفاء. وإذا أردت أن تعرف موقع العالم الإسلامي على خارطة القوى العالمية، وأن تعرف مدى تأثيره الحالي في تحديد وجهة العالم؛ فانظر إلى أوضاع كل دولة من دوله على انفراد؛ فالموج لا يكون أبدًا إلا من جنس مائه.

نحن اليوم في حاجة ماسَّة إلى أن نبلور ونرسخ ثقافة (الإنجاز المتجاوز) والتي تعني - فيما تعنيه - ألا يُؤَخَّر شيء يمكن عمله الآن من أجل انتظار شيء سيحدث في المستقبل. وتعني كذلك تعزيز روح المبادرة الفردية لدى الإنسان المسلم وتعزيز روح الإيجابية، والتعامل مع المعطيات

الجديدة بعقل وقلب مفتوحين؛ حيث إن معظم المسلمين ما زالوا يرزحون تحت وطأة موروثات عصور الانحطاط والتي يأتي في طليعتها الكسل والفوضى والتواكل والخوف من الجديد والتقليد والتبعية والتفكير ومحدودية الطموحات والمجاراة الاجتماعية والمثالية الزائدة. **والآن اسمحوا لي أن أتحدث عن ثلاث قضايا أتصور أنها ذات أهمية قصوى بين القضايا الكثيرة التي يمكن القيام بها في جميع الأحوال:**

١ - المجاهدة من أجل تغيير سُلَّم القيم:

هناك قيم عالمية مشتركة تهتم بها كل الثقافات وكل الحضارات؛ مثل الصدق والأمانة والإحسان والوفاء وإغاثة الملهوف والإتقان والتسامح والعفو والجدية والدقة والتملك والرفاهية والنظافة والاقتصاد في بذل الجهد.... ويتعامل الناس مع هذه القيم في كل زمان ومكان على أنها مفردات في نسق عام؛ وهي في تواليها أشبه بدرجات السُلَّم. وتتم التضحية بالقيم الدنيا عند التعارض من أجل الاستمساك بالقيم العليا، فإذا كانت قيمة الصدق - مثلًا - لدى إنسان أعلى من قيمة المال فإنه يلزم الصدق ولو كان الكذب يجلب له المال الوفير. وحين تكون قيمة الخوف من اللَّه - تعالى - لدى المسلم أعلى من قيمة الخوف من الناس فإنه لا يبالي بغضب الناس إذا كانوا لا يرضون إلا بإغضاب اللَّه. وحين يحلُّ النعاس بأحدنا وتكون قيمة

النوم عنده أعلى من قيمة تنظيف أسنانه، فإنه سينام دون أن ينظفها. وإذا كانت قيمة تنظيف الأسنان أعلى فإنه سيقاوم النعاس إلى أن ينتهي من تنظيفها وهكذا...

- المجاهدة في سبيل تغيير سُلّم القيم ينبغي أن تستهدف تحقيق أمرين أساسيين:

أ - العبودية الحقة للَّه - تعالى - والالتزام بأمره في المنشط والمكره.

ب - الفاعلية العالية في الإنجاز مع المثابرة على العمل الشاق بغية بلوغ الأهداف المرسومة.

وإن التغيير في عاداتنا وسلوكاتنا هو الطريق لتحقيق هذا وذاك. ولو أن المسلم أخذ على عاتقه أن يتخلص من عادة سيئة كل ستة أشهر لتحل محلها عادة حسنة، فإنه يكون قد التزم بإجراء تعديلات مستمرة في سُلَّمه القيمي بما يحقق العبودية والفاعلية. ومع أن هذا الأمر ليس بالسهل فإنه بالاستعانة باللَّه - تعالى - والعزيمة التي لا تلين يمكن إنجاز الكثير الكثير. وهذا التحدي سيظل ماثلًا أمام كل مسلم في كل الظروف إلى أن يلقى ربه.

٢ - المشروع الشخصي:

علينا أن نقول: إن وعينا مفتون بالإنجازات الكبيرة والانتصارات العظمى، مما زهّدنا بالاهتمام بالأمور الصغيرة

والتفاصيل الدقيقة، مع أنه من غير الممكن التعامل مع القضايا الكبرى من غير تفتيتها وتنويع المداخل والطرق لحلها. فكرة المشروع الشخصي ما زالت غريبة عن المجتمعات الإسلامية ولدى معظم الناس، مع أنه قد يكون هو السبيل الأكثر يسرًا والأقل تكلفة والأكثر نجاعة والأقل مخاطرة في إنقاذ الأمة من الحالة الحرجة التي صارت إليها في ظل قصور الداخل وضغوطات الخارج.

المشروع الشخصي يعني التزام المرء بإنجاز شيء يكرِّس له حياته أو جزءًا كبيرًا منها. وهو من أجل إتقانه وأدائه على أفضل وجه مستعد للتنازل عن بعض الرغبات وتفويت بعض المصالح وذوق طعم العناء.

المشروع الشخصي رؤية تتكون من الهدف والطاقة والإمكانية والبعد الزمني. ولا قيمة لتلك الرؤية إذا لم يتم تجسيدها في خطة عملية ومنطقية واضحة ودقيقة. من خلال مشروعنا الشخصي نعثر على الدور الأمثل الذي يمكن أن نؤديه في هذه الحياة كما أننا نجيب من خلاله عمليًا عن الأسئلة التي لا يتم التقدم الحقيقي من غير الجواب عنها. وأهم تلك الأسئلة سؤالان ضاغطان، هما:

أولًا: ما الشيء الذي نستطيع أن نفعله الآن لكننا لا نفعله؟

ثانيًا: ما العمل الذي إن أديناه بطريقة جديدة تكون نتائجه أفضل؟

ومن المهم أن تكون الأهداف التي ننجزها من خلال ذلك المشروع متصلة بالهدف النهائي الذي على كل مسلم أن يسعى إلى بلوغه وهو الفوز برضوان اللَّه تعالى.

سوف تتقدم أمة الإسلام تقدمًا باهرًا إذا تمكن (٥٪) من أبنائها من تقديم نماذج راقية في العلم والتربية والأخلاق والسلوك والعلاقات الاجتماعية والإنتاج والإبداع؛ فالذي يغير معالم الحياة ليس الأفكار والحكم والمقولات - وإن كانت تشكل الأساس لأي ازدهار - وإنما النماذج الراقية التي يتفاعل معها الناس، ويتخذون منها قدوات يقتدون بها.

الأمم الفقيرة ليست تلك التي لا تملك الكثير من الرجال ولكنها الأمم التي يتلفت أبناؤها يمنة ويسرة فلا يرون إلا رجالًا من الطراز الثالث أو الرابع، فيحدث ما يشبه الفتنة الثقافية والضياع السلوكي. من الصعب أن يكون المرء نموذجًا في أمور كثيرة، لكن من الميسور أن يكون عاديًّا أو فوق العادي قليلًا في جلِّ شؤونه، ويقدم نموذجًا رفيعًا في شأن أو اثنين أو ثلاثة.

إذا نظرنا في سير صفوة الصفوة من أصحاب النبي ﷺ لوجدنا أنهم من خلال براعة كل واحد وتفوقه في بعض

الأمور تمكنوا من كتابة تاريخ صدر الإسلام، وتأسيس المرجعية الرمزية والشعورية والأخلاقية لأمة الإسلام بطولها وعرضها. هذا يقدم نموذجًا في العدل، وهذا في الإخلاص والتجرد، وهذا في الصدق والأمانة، وهذا في الثبات على المبدأ، وهذا في النبوغ العلمي والفقهي، وهذا في الحنكة العسكرية، وهذا في الكرم والجود، وهذا في البر بوالديه وأرحامه، وهذا في الحياء واللطف والطيبة... وهكذا تم رسم ملامح أفضل مراحل حضارة الإسلام وملامح أكرم الأجيال.

جمال فكرة المشروع الحضاري الشخصي أنه لا يحتاج إلى كثير مال وأحيانًا لا يحتاج إلى أي مال. وهو ليس ذا مقاييس صارمة ومعالم محددة، ولذا فإن معظم الناس يستطيعون أن يهتموا بأمر من الأمور يصبحون من خلاله منارًا ومرجعية لغيرهم؛ ومن الذي يمنع المرء أن يقدم نموذجًا في التبكير إلى صلاة الجماعة أو خدمة والديه أو الحرص على الوقت أو التصبر والتحلم وسعة الصدر...؟

من خلال المشروع الحضاري يحقق المرء لدينه وجماعته ودنياه الكثير من المكاسب، وهو في كل ذلك الكاسب الأول. لكننا نحتاج إلى شيء من البصيرة وشيء من التخطيط وكثير من الهمة والاهتمام وروح المثابرة.

٣ - المشاركة في الخدمة العامة:

يتجلى الكثير من عظمة الأمم وخيريتها في تمتعها بأعداد كبيرة من المهتمين بالشأن العام، والناهضين للقضايا التي لا تدخل في مسؤولية أي جهة من الجهات. وإنَّ في إمكان أي مسلم مهما كانت ظروفه وأوضاعه ومهما كانت قدراته وإمكاناته أن يسهم في تحسين الحياة العامة وإشاعة الخير ومحاصرة الشر في البلد الذي يعيش فيه. وسيكون من الخطأ الظن أن الإحسان يقتصر على بذل شيء من المال للفقراء.

لا ريب أن هناك مشكلات كثيرة لا يحلها إلا المال؛ لكن أيضًا هناك مشكلات كثيرة جدًّا لا تحتاج في حلها إلى أي مال. وقد كان عبد اللَّه بن عمر ﷺ يخرج إلى السوق مع غلامٍ له، ثم يعود دون أن يشتري أي شيء، وكان غلامه يستغرب، ويتساءل: لماذا كان ذلك؟! وكان ابن عمر يجيبه إنَّه خرج من أجل السلام على الناس.

في المسلمين مظلومون يحتاجون إلى مناصرة، وفيهم جهلة يحتاجون إلى تعليم، ومنحرفون يحتاجون إلى إرشاد، ومهمومون يحتاجون إلى مواساة... ولو أن كل مسلم بذل ساعة في الأسبوع في التعاون مع مؤسسة خيرية أو في عمل تطوعي عام لتغير وجه الحياة في عالمنا الإسلامي.!

نحن أمة تتحدث كثيرًا عن حب الخير وعمل الخير، لكن

الأرقام والإحصاءات والنتائج الملموسة تدل على أننا في الأعمال التطوعية والأنشطة غير الربحية في مؤخرة الأمم. ويكفي القول: إن القطاع الثالث والذي يشمل الأعمال الخيرية وغير الربحية في (إسرائيل) يستوعب [١١٪] من القوة العاملة هناك؛ على حين أنه في أقطارنا الإسلامية لا يستوعب ولا واحدًا في المئة!

من خلال حبَّات الرمل تتشكل صحارى شاسعة، ومن خلال قطرات الماء تتشكل بحار ومحيطات، ومن خلال الأعمال الصغيرة والمبادرات الفردية يتشكل مستقبل أمة إذا امتلكنا ما يكفي من العزيمة والوعي.

* * *

على المدى البعيد (١)

كثيرة هي الأعمال في كل الأحوال والظروف التي يمكن القيام بها من أجل نجاح العبد وفلاحه في أمور دنياه وآخرته.

وأودُّ أن أتحدث عن نوعية الوسط أو البيئة التي يجب العمل على المدى الطويل من أجل بنائها كي يتوافر للإنسان المسلم الجو الملائم لأفضل عطاء وأفضل إنجاز ممكن. والحقيقة أنّ أية أمة لا تستطيع استنفار طاقاتها والسيطرة على أوقاتها على وجه مقبول من غير رؤية (إستراتيجية) لماهية البيئة التي يجب أن تحيا فيها أجيالها القادمة.

ونحن بوصفنا أمة مسلمة لها منهجيتها ورؤيتها وتطلعاتها الخاصة، نعتقد على نحو جازم أن كل أشكال التنمية وكل أشكال التغيير والتطوير يجب أن تستهدف شيئًا واحدًا هو توفير بيئة، تساعد الإنسان على القيام بأمر اللَّه - تعالى - على أفضل وجه ممكن. وهذه الرؤية نهائية وواضحة، وهي مستمدة من مجموعة العقائد والمفاهيم الكبرى التي نحملها. وهي رؤية متفردة، ليست لأي أمة من أمم الأرض اليوم، وهي إحدى منن اللَّه علينا.

إذا كان من غير الممكن - في عالم الأسباب - توقع حصول مستقبل مغاير مغايرة كبيرة للواقع؛ فإن علينا - إذا

ما أردنا تكوين البيئة التي نريد - أن نحسِّن ونرشِّد القرارات اليومية التي نتخذها في كل صعيد وعلى المستويات كافة؛ إذ إن تشييد البنيات الثقافية والأخلاقية والاجتماعية يحتاج إلى أزمنة متطاولة، وهو لا يتم على النحو الصحيح إلا من خلال العمل الحكيم والجذري والمتدرج.

البيئة تعني مجموعة المفاهيم والأخلاقيات والتقاليد والظروف والمعطيات والنظم المتوافرة والسائدة في بلد من البلدان.

وإن البيئة ذات دوائر متسعة منفتحة، والدائرة الأضيق بالنسبة إلى كل واحد منا هي الأكثر تأثيرًا في حياته؛ فالأم هي أكثر من يؤثر في الطفل ثم الأسرة عامة، ثم الأقرباء وأهل الحي وهكذا...

والبيئة من وجه آخر أشبه بحبل غليظ مكوَّن من ألوف الخيوط والشعيرات الدقيقة، وكل عدد من تلك الخيوط والشعيرات ينتمي إلى مجال من المجالات الروحية والمعنوية والمادية. وقد دخل في نسيج ذلك الحبل في مرحلة من المراحل كل العناصر التي تكوِّن ثقافة الأمة والأوضاع العامة التي تحيا فيها. وهناك تقريب للفكرة وإشارة إلى بعض تلك الخيوط والشعيرات في عدد من الأحاديث النبوية الشريفة، منها قوله ﷺ: « **كل سُلامى من الناس عليه صدقة كلَّ يوم**

تطلع فيه الشمس: تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته، فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة والكلمة الطيبة صدقة. وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة وتميط الأذى عن الطريق صدقة » [١].

وقوله ﷺ: « **الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبة من الإيمان** » [٢].

وقوله ﷺ: « **كل معروف صدقة** » [٣].

إن قول الله - جلَّ وعلا - ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

يدل على رؤية الناس لجزاء أعمالهم في الآخرة. ويمكن أن نهتدي به في القول: « إن ما يفعله الناس من خير وصلاح ومعروف وتنمية جيدة، إن كل ذلك يرونه في نوعية الأوضاع والظروف العامة التي سيعيشون فيها والتي ستعيش فيها ذراريهم من بعدهم، كما أنهم جميعًا سيرون آثار ما يصدر عنهم من شرور وآثام وأخطاء وخطايا على شكل صعوبات ومشكلات ومعوقات في وجه الحياة الطيبة التي يسعون إليها ».

(١، ٢) متفق عليه. (٣) رواه البخاري.

وإني أعترف هنا وقبل كل شيء أنني لا أملك الإمكانية الذهنية ولا المعرفة الكافية لرسم ملامح خطة شاملة وبعيدة المدى تستهدف توفير بيئة تساعد الفرد المسلم والدولة المسلمة على النهوض بأعباء الاستخلاف في الأرض، **ولكنني سأبذل جهدي في وضع بعض النقاط على بعض الحروف الكبيرة؛ ومن اللَّه - تعالى - الحول والطول:**

١ - قلما وجَّه الدعاة والمصلحون لدينا اهتمامهم إلى نوعية البيئة التي يحتاج إليها المسلم كي يحيا زمانَه بفاعلية ودرجة من الراحة في إطار العقيدة والقيم والآداب التي يؤمن بها؛ فقد كان الاهتمام - وما زال - بما يجب قوله أو بشروط الداعية الناجح دون النظر إلى الشروط التي تجعل المدعوين أقرب إلى التفاعل والاستجابة، مع أن تأثير الظروف والمعطيات السائدة في توفير خيارات الحركة وفي حفز الناس على تحديد اتجاهاتهم ومواقفهم تأثير هائل، وأكبر بكثير مما نظن.

إن الفرق بين البيئة المعاكسة والبيئة المواتية للاستقامة والرشاد والعطاء كالفرق بين من يسبح عكس التيار، ومن يسبح مع التيار؛ حين نطلب من شاب أن يُبدع ويصبح باحثًا متميزًا في فرع من فروع العلم، ونجد أنه يعيش مع خمسة من إخوته في حجرة واحدة، وليس معه ثمن مرجع يشتريه، ولا تكاليف تجربة يجريها، كما أنه ليس في البلد الذي يقيم فيه مكتبة عامة، ولا مركز تدريب، ولا جمعية خيرية تمد

يد العون في شيء. حين نطلب ذلك فإن الاستجابة ستكون في منتهى الصعوبة، وستكون في معظم الأحيان هزيلة، وسيكون المستجيبون من الشباب للتحفيز على البحث والإبداع قلة قليلة. أما الباقون فإنهم سيرضخون للظروف وسيرضون بأقل القليل من الإنجاز. وهذا ما هو حاصل فعلًا الآن في كل أنحاء العالم وفي كل مجالات الحياة. البيئات المحطَّمة والهشة والجاهلة تحطم قوى من يعيش فيها، وتحطم تطلعاته وطموحاته، وتجعل آفاقه محدودة. ولهذه القاعدة شذوذات ملموسة، لكن الذي يمنح الحياة ملامحها ليست الأمور الشاذة والنادرة وإنما الأمور الغالبة والكثيرة.

إن بلدًا صغيرًا مثل هولندا أو بلجيكا يسجل من براءات الاختراع ما يعادل نصف ما يسجله العالم الإسلامي بطوله وعرضه! وإن براءات الاختراع التي تسجل في (إسرائيل) سنويًا يزيد على ما يسجل في الوطن العربي ذي الثلاث مئة مليون!! وإن ما تنشره جامعة (هارفارد) من بحوث سنويًا يعادل ما تنشره كل الجامعات العربية مجتمعة.!!

٢ - إذا تأملنا في ردود أفعال الأمة على جملة الانحرافات التي كانت تحدث فيها لوجدنا أننا على مدار التاريخ - مع استثناءات مقدَّرة - كنا نعالج مشكلاتنا بوسيلتين هما؛ سنُّ المزيد من النظم والقوانين التي تقيِّد حركة الناس، وتحدُّ من اندفاعاتهم، وقد عبّر عن هذا الخليفة

عمر بن عبد العزيز رحمه الله حين قال: « يحدث للناس من الأقضية على مقدار ما يُحدثون من الفجور » أي يحدث للناس نوع من التشديد في الأقضية والجزاءات على مقدار ما يصدر منهم من تصاعد في الانحراف.

والوسيلة الثانية هي (القوة) بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى. وقد أشار إلى ذلك عثمان بن عفان رضي الله عنه حين أطلق مقولته الشهيرة: « إن اللّٰه يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ».

ولو أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال ذلك لما قُبل منه ولما كان دقيقًا؛ لأن الردع في زمانه كان بالقرآن (وهو ما نعبر عنه اليوم بالثقافة) أكثر من الردع بالسلطان (وهو ما نعبر عنه بالقوة). ومع اضمحلال دور الثقافة والوازع الداخلي كان اللجوء إلى استخدام الشدة في إدارة الحياة العامة يتعاظم وينتشر.

وقد نقل ابن حجر في فتح الباري عن الشعبي قوله: « كان عمر فمن بعده إذا أخذوا العاصي أقاموه للناس ونزعوا عمامته. فلما كان زياد ضرب في الجنايات بالسياط، ثم زاد مصعب بن الزبير حلق اللحية. فلما كان بشر بن مروان سمر كفَّ الجاني بمسمار. فلما قدم الحجاج قال: هذا كله لعب فقتل بالسيف ».

النتيجة النهائية لهذه وتلك هي إخراج المسلم الخائف والخانع والسلبي والإمعة وإخراج المجتمع الذي يُظهر ضروبًا من الامتثال للنظم السارية في الوقت الذي يضمر فيه روح

التمرد والتبرم، كما يضمر الكثير من السلوكات والأعمال السيئة. ومع إيماننا بأنه لا يمكن لمجتمع أن يعيش من غير نظم وقوانين توجه الحركة الاجتماعية وتشكل المرجعية الأخلاقية والتنظيمية للناس، ومع إيماننا بأن الدولة مهما كانت عادلة وفاضلة وناجحة لا تستغني عن استخدام شيء من السلطة والقوة إلا أن علينا أن ندرك أن هذا الأسلوب في معالجة الأخطاء ليس هو الأسلوب الصحيح من وجهة النظر الإسلامية ولا هو بالأسلوب العملي والمنتج والملائم لبلوغ الأهداف التي نسعى إليها.

على المدى البعيد لا بدَّ من العمل على توسيع مجال عمل (الثقافة) في تحديد مسارات المجتمع وفي كبحه عن الانحراف والرذيلة؛ فجوهر الإيمان والإسلام لا يقوم على الإكراه ولا على الامتثال للضغط الخارجي، وإنما يقوم على الاختيار والمبادرة الشخصية والشعور بالمسؤولية. والدولة الفاضلة هي التي تدير شؤون مجتمعها بأقل قدر من القوانين ومن أدوات القهر والإكراه. والفضيلة لا تكون كذلك إلا بتعشق الناس لها واستعدادهم للتضحية من أجلها.

إن كثرة السجون وتصاعد الرقابة الصارمة وسن المزيد من القوانين هو دليل على قصور في التنشئة الاجتماعية، كما أنه دليل على ضعف الإيمان وضعف أدبيات التدين السائد في تشكيل مواقف الناس وسلوكياتهم، ودليل على ضعف

جاذبية الدولة في كسب ولاء الناس وتجاوبهم. وقد آن الأوان للتفكير العميق والعمل الجاد من أجل تشكيل بيئة يمتنع فيها الناس عن الانحراف والفساد بدافع من إيمانهم وخوفهم من اللّٰه - تعالى - وليس بدافع من خوف الدولة أو كلام الناس. ومداخل مثل هذا الاتجاه واضحة لدى أهل البصيرة والخبرة.

* * *

على المدى البعيد (٢)

إن وضع الأمة في بيئة تساعدها على تحسين إنتاجيتها وتحرير طاقاتها واكتشاف إمكاناتها الحضارية الكامنة يتطلب أن نعطي لمسائل الأمن والاستقرار والسلام والوئام الاجتماعي جلَّ اهتمامنا وعنايتنا. حين يضطرب حبل الأمن فإن الفرصة تصبح متاحة لظهور كل أشكال التوحش والهمجية التي اختفت تحت قشرة رقيقة من طلاء الحضارة. وقد دلت شواهد التاريخ ومعطيات الواقع أن أشد الحاجات إلحاحًا تتمثل في اهتداء الناس إلى طريقة ناجعة لإدارة العنف والتوتر الذي ينشأ نتيجة تصادم رغباتهم ومصالحهم؛ حيث إن اجتماع الناس بعضهم مع بعض على مقدار ما يوفر من المباهج والمسرَّات والمشاعر الحميمة يوفر إمكانات التناحر والتحارب.

حاجة الناس إلى أن يتعايشوا في إطار نظم وقوانين توضح مبادئ حقوقهم وواجباتهم حاجة ماسَّة؛ لكن هذه الحاجة لا يمكن تلبيتها في أجواء الحرب الأهلية والتطاحن الاجتماعي. إن القانون السائد مهما كان غير عادل وغير مكتمل فإنه يظل خيرًا من الوضعيات التي لا يحكم فيها أي قانون؛ حيث يتحول المجتمع إلى غابة ليس فيها إلا مفترِس ومفترَس وظالم ومظلوم!. ليست إدارة العنف داخل

المجتمعات بالأمر السلس واليسير؛ فهذه القضية دوّخت العالم من أدناه إلى أقصاه. والتقدم الذي تحقق على صعيدها نسبي وغير مُرضٍ في معظم الحالات. **ولعلي أقف مع هذه المسألة الوقفات التالية:**

١ - هناك تشوق إنساني عميق إلى ما يمكن أن نسميه (تحقيق الذات) حيث يتطلع الإنسان إلى أن يؤكد لنفسه وللآخرين قدرته على القيادة والتأثير واستحقاقه للريادة والتسامي نحو المعالي. وهو في سبيل ذلك مستعد للتضحية والبذل كما أنه مستعد عند الحاجة لتجاوز كل المبادئ والقيم؛ بل ارتكاب الجرائم إذا اقتضت الضرورة ذلك!.

الأنشطة الروحية والأدبية والتطوعية والاجتماعية تساعد المرء على تحقيق ذاته والكشف عن إمكاناته؛ فهذا يحقق ما يتطلع إليه عن طريق تأسيس رابطة، وذاك يحققه عن طريق رئاسة جمعية، وثالث يحققه عن طريق الانخراط في حركة لحماية البيئة وهكذا... لكن بما أن كل عمل جماعي يؤسس لسلطة جديدة، ويثير حساسية معينة لدى بعض الجهات، فإن هناك رغبة قوية في ابتعاد الناس عن كل الأنشطة الجماعية والحرة مهما كانت نبيلة الأهداف وعظيمة الفوائد والنتائج.

ومن هنا فإن انسداد الآفاق أمام الأنشطة المشار إليها أو تضييقها وانحسارها إلى حد كبير دفع بالناس إلى أن يجعلوا تحقيق ذواتهم يتم عن طريق جمع الأموال والثروات

واقتناص الوجاهة وإظهار السيطرة عن طريق التفنن في إنفاقها واستخدامها. وبما أن المعروض من (المال) هو دائمًا أقل من المطلوب – حيث لا يملأ فم ابن آدم إلا التراب – فإن منافسة ضارية قد اشتعلت في كل مكان من ديار المسلمين وعلى كل المستويات.

وعلى مدار التاريخ كانت المنافسة متصلة بانحطاط المدينة وسوء الأخلاق؛ حيث يدفع الحرص على جمع المزيد من المال نحو الكذب والغش والخداع والرشوة والتضحية بالكرامة وارتهان الذات... وقد صرتَ تلتقي بأشخاص كثيرين لا ترى فيهم أبدًا ما يدل على أنهم يرجون اللَّه والدار الآخرة، أو يقيمون أي اعتبار لمبادئ الإسلام وقيمه! وفقدت الحياة بذلك أجمل معانيها!

إن إطلاق الأنشطة الروحية والأدبية والتطوعية المختلفة والتحفيز عليها وتيسير سبلها، يخفف إلى حد كبير من الطلب على المال، ويخفف بالتالي من حدة التعانف الأهلي والتوتر الاجتماعي. وأعتقد أن علينا أن نبتكر في إيجاد الأطر والأوعية والنظم التي تتيح للناس الشعور بتحقيق الذات وإشباع التطلعات على نحو لا يتصل بالمال أو أي اعتبار آخر.

٢ – لن يتحقق السلام في مجتمعاتنا ولا الأمن ولا الاستقرار ولا الشعور بالانتماء للوطن ما لم يسد العدل وتكافؤ الفرص ونفاذ القوانين على الناس دون استثناء ودون

اعتبار خصوصية لأيٍّ كان. والحقيقة أن الإسلام عانى طويلًا مع العرب ومع كل المجتمعات التي تقوم فيها الروابط على أساس العِرْق والنّسَب؛ وكان الهمُّ المسيطر خلال تاريخنا الطويل - على المستوى السياسي والقانوني - هو نقل المجتمعات الإسلامية من مرحلة القبيلة إلى مرحلة الدولة، أي من مرحلة الولاءات والتكتلات وتبادل المنافع على أساس الولادة ومعطيات التاريخ إلى مرحلة الخضوع للأحكام الشرعية والقوانين والنظم السارية.

ويجب أن نعترف أنه لم تسجل اختراقات ذات شأن على هذا الصعيد. وعلى نحو عام فإن النجاحات كانت محدودة جدًّا! وهذا الإخفاق في الانتقال من مرحلة الدولة كان السبب الجوهري وراء كثير من الفتن والثورات التي كانت تجتاح الأمة في العديد من فتراتها التاريخية. وهو نفسه السبب الكامن خلف سلبية الإنسان المسلم عامة والعربي خاصة تجاه المخاطر المحدقة التي تتعرض لها بعض الأوطان الإسلامية إلى درجة أن يقوم الناس ويحتجوا في الغرب ضد ممارسة حكوماتهم تجاهنا، ونحن سادرون غافلون ومنهمكون في همومنا الشخصية، وكأن الأمر لا يعنينا من قريب أو بعيد!!.

حين سرقت امرأة من بني مخزوم - فخذٌ من أنبل أفخاذ قريش - أهمَّ ذلك قريشًا: كيف تُقطع يدُ مخزومية؟!

وقالوا: « من يكلِّم رسول اللَّه ﷺ إلا أسامة بن زيد حبُّ رسول اللَّه؟. » فكلَّمه أسامة في ذلك، فقال الرسول: « **أتشفَع في حد من حدود اللَّه** »؟! ثم قام - عليه الصلاة والسلام - خطيبًا في الناس ليعلن لهم مبدأ من أهم المبادئ التي تقوم عليها الأمم والحضارات العظيمة؛ حيث قال: « **إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه. وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد!. وايم اللَّه لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها** » [1].

ربما نكون قد قدَّمنا نموذجًا واحدًا ثابتًا وشاملًا في مسألة تكافؤ الفرص وإشاعة العدل والتعامل على أساس الكفاءة الشخصية وليس على أي أساس آخر؛ ذلك النموذج هو ما يتم في تشكيل المنتخبات الوطنية التي تمثل بلاد المسلمين في الألعاب الرياضية الدولية. هنا يتم تحري الأكفأ والأليق دون حساسيات ودون حسابات خاصة ودون اعتبار لمنافع جانبية، في الأعم الأغلب.

وأنت تلاحظ ما يثيره هذا السلوك الجيد من حمية الناس وحماستهم وتعاطفهم؛ حيث ينقلب الشخص غير المكترث بذهاب وطن إلى إنسان مشتعل حماسًا إلى درجة لا تُصدَّق بسبب دخول كرة فريقه الوطني في شباك مرمى المنافس! وإني لا أشك أن الناس سوف يتفاعلون ويبذلون ويهبّون تجاه

---

(١) متفق عليه.

كل المسائل الكبرى إذا شعروا أن الأمور تجري فيها على ما ينبغي، ووجدوا الإطار الذي يعبِّرون من خلاله عن ذلك؛ فالخير متأصل في النفوس، والولاء لأمة الإسلام وللمجتمع الإسلامي ضارب أطنابه في أعماق شخصية المسلم.

الوطنية في جوهرها شعور بشرف الانتماء لبقعة من الأرض تحكمها نظم وقوانين واحدة، ويجمع الناس الذين يعيشون عليها الالتزام بمبادئ وقيم موحدة، والسعي إلى أهداف متقاربة.

ولا معنى للانتماء إلى أرض لا تتوافر فيها هذه المعاني. وقد قال أحدهم: « لماذا أدافع عن وطن لم يؤمِّني من خوف، ولم يُطعمني من جوع، ولم يساعدني على ارتجاع حقي المغتصَب »؟!.

٣ - يتطلب استتباب الأمن والشعور بالسلام والاستقرار إحساس الناس بأن لهم نوعًا من المشاركة في إدارة الشأن العام. أما في الأمور اللصيقة بهم، فلا يُتخذ قرار دون موافقة أغلبيتهم عليه. وإن قول اللَّه - جلَّ وعلا -: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨] يوضح أن بعد الشورى ليس سياسيًّا فحسب، وإنما لها أبعاد أخرى: أخلاقية وتربوية واجتماعية.

على المستوى السياسي من المهم جدًّا أن يعرف الناس أنهم من خلال الشورى يستطيعون تحقيق ولايتهم على أنفسهم، ويستطيعون أن يثقوا أنهم إذا ابتُلوا بحكومة سيئة، فإنهم

قادرون على التخلص منها من غير إراقة دماء أو تخريب للمرافق والممتلكات العامة؛ فالسّلم الاجتماعي لا يأتي من خلال الدعوة إليه، وإنما من خلال فتح طرق للتغيير والتطوير والتحسين، تبتعد عن التآمر والقتل والتخريب.

إننا أحيانًا نمتنع عن استشارة الناس خوفًا من أن يأتوا بعناصر سيئة تسيء للدين والمصلحة العامة. وهذا الخوف مقدَّر ومعتبر وقد يحدث هذا فعلًا في بعض الأحيان ولا سيما في البدايات أو عند فساد التربية، لكن هذا لا يشكِّل القاعدة؛ فالولاء للدين وللصلاح والكفاءة قوي جدًّا في الأمة؛ وفي الإمكان وضع ضوابط تحد من مخاطر هذا الأمر. وعلى كل حال فلن نستطيع أبدًا العثور على صيغة في إدارة العنف وتسيير الشأن العام، تخلو من السلبيات أو الأخطاء. ولا بد في سبيل أن تنال بعض الأشياء من أن تخسر أشياء أخرى. هذا هو حال الإنسان الذي يجد نفسه أبدًا عاجزًا عن الصدور عن رؤى كلية وبناء تنظيمات وترتيبات كاملة.

إننا في حاجة ماسّة حتى ننهض ونتخلص من أشكال العنف إلى أن نجعل الشورى تقليدًا محترمًا في بيوتنا ومدارسنا ودوائرنا ومؤسساتنا وكل مناشط حياتنا؛ فالقضايا الكبرى تظل قضايا خاسرة ما لم تتصدَّ الأمة لحملها والمساهمة في إنجاحها. وكل حَمْلٍ يتم خارج رحم الأمة هو أشبه بالحمل الكاذب. لكن الأمة غير مستعدة للتضحية

ما لم تشعر أنها تشارك في صنع القرار، وأنها ليست عبارة عن أدوات للتنفيذ فقط. وعلى علمائنا ومفكرينا وخبراء التشريع والقانون فينا أن يبدعوا في إيجاد صيغ تنظيمية تجعل الشورى أسلوب حياة، كما تجعل منها أداة للإصلاح والارتقاء في إطار الأصول والثوابت التي نؤمن بها.

٤ - إنني أتساءل دائمًا: هل يمكن للأمن والنظام والسلام والاستقرار والتعايش السلمي أن يتم في أي مجتمع من المجتمعات دون وجود تنظيم جيد للنقد والمعارضة وتضارب الرؤى والآراء والاتجاهات؟

ليس من المقبول في اعتبار العقل والشرع أن يقول من شاء ما شاء دون خوف المساءلة القضائية عن صحة ما يقول، ولا أن يفعل الناس ما يعنُّ لهم ولو كان ضارًّا بالمصلحة العامة. كما أنه ليس من المقبول أن تكمم الأفواه، فلا يتمكن أي أحد من إبداء وجهة نظره في شأن عام، مهما كان رأيه سديدًا ورشيدًا؛ فالقرآن الكريم شجَّع الناس على ممارسة النقد من خلال معاتبة النبي ﷺ على بعض اجتهاداته ومعاتبة الصحابة - رضوان الله عليهم - على بعض ما وقع منهم؛ حيث يُعد التستر على الأخطاء أكبر مشجع على تكرارها واستمرارها، وحيث يُعدُّ النقد والبحث عن أشكال القصور وأنواع الأخطاء والخطايا من أفضل الوسائل المساعدة على الإصلاح وتخليص الناس من كثير من المشكلات والأزمات

ومحاصرة المفاسد والشرور.

إن تراثنا الفقهي لم يستوف التنظير والتقعيد لضوابط النقد والمعارضة وتضارب الآراء على نحو يغنينا عن النظر والاجتهاد؛ بل إن كثيرًا من التفاصيل والحيثيات ما زالت غامضة. وأعتقد أن كثيرًا من الاضطرابات الهوجاء والأزمات الخانقة التي مرت بها الأمة كان بسبب التطرف في التعامل مع هذه المسألة؛ فالحريصون على بقاء كل شيء على ما هو عليه مهما كان غير ملائم وغير صحيح ضيقوا أبواب النقد إلى حد إسكات الناس عن قول أي شيء.

والذين كانوا يشكون من سوء الأحوال كانوا يريدون قلب كل شيء رأسًا على عقب بعيدًا عن الرفق والتدرج والمجادلة بالتي هي أحسن. وقد آن الأوان لأن تتلاحم الصفوف، وتتشابك الأيدي بين الجميع ومن كل المستويات والمجالات من أجل العمل الدؤوب على إرساء التقاليد وسنٌ القوانين وتشييد المؤسسات وإبداع الأفكار التي تنشر الأمن والسلام وحب النظام والالتزام بالأحكام الشرعية والأعراف الصالحة والقوانين السارية، وتساعد في الوقت نفسه على نبذ التعانف والتقاتل واللجوء إلى القوة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى.

* * *

على المدى البعيد (٣)

إن لدى الكثير من أهل الخير حساسية خاصة نحو الحديث عن الاقتصاد والتنمية والزيادة السكانية والبطالة... فهم يشعرون أن الاهتمام بهذه الأمور لا يخلو من نزوع نحو الدنيوية والمادية، وإعطاء الاعتبارات المعيشية أكثر مما تستحق من العناية والانتباه.

وفي تصوري أن هذه الحساسية لم تعد سائغة اليوم، فأنا مع اعتقادي بضرورة توخي الحذر من الوقوع في شَرَك الحسابات والاعتبارات المادية البحتة بعيدًا عن المبادئ والأهداف الإسلامية إلا أنني أعتقد أن من شأن التقدم الحضاري أن يُضعف إرادة المقاومة لدى الناس تجاه المغريات؛ ومن ثم فإنهم يُظهرون المزيدَ من الاستجابة لضغوط البيئة ومتطلبات العيش. وكثيرًا ما يكون ذلك على حساب مبادئهم وقيمهم؛ مما يعني أن تحسين شروط العيش إلى حدود مقبولة، سيساعد الناس على أن يحققوا مصالحهم في إطار مبادئهم وأخلاقياتهم؛ والعكس صحيح.

إن كثيرًا من سقم التفكير وتخلف الخطط والمناهج الإصلاحية يأتي من خلال الانغلاق وصرف الاهتمام عن التطورات المتسارعة فيما يتعلق بحاجات الناس وضرورات

وجودهم، ومن خلال عدم الاكتراث بالتحولات في ذائقتهم الثقافية ونظرتهم إلى الضغوط والمرفهات والحقوق والواجبات وإن مفتاح فهم كل ذلك يكمن في شيء واحد هو الانفتاح على الواقع والتأمل في تداعياته وإحالاته واتجاهاته؛ إذ ما فتئ فهم الواقع واستكشافاته بإيجابية مصدرًا لتطوير الذهنية وتوجيه المعرفة ومصدرًا لإعادة ترتيب الأولويات.

لا بد من هذه اللحظة وعلى المدى البعيد من العمل على إيجاد تنمية اقتصادية تكافئ الزيادة السكانية في العالم الإسلامي. ومن المهم أن ندرك أن كل الأمم التي اعتمدت في معيشتها على الزراعة والرعي خلال القرنين الماضيين تواجه مشكلات اقتصادية متفاقمة؛ فالناس يزيدون، لكن الأرض لا تزيد، فهي مع كل جيل تشهد نقلة في التفتت والتضاؤل؛ وعلى سبيل المثال فإذا قلنا: إن زيدًا من الناس يملك مئة فدان من الأرض، وله خمسة من الولد، فإنه بعد وفاته ستقسَّم ليكون لكل واحد عشرون فدانًا. فإذا توفي أولئك الخمسة، وترك كل واحد منهم أيضًا خمسة (فيكون المجموع خمسة وعشرين ولدًا) فإن نصيب الواحد منهم سيكون أربعة أفدنة. فإذا قلنا: إن أولئك الخمسة والعشرين من الأحفاد توفوا، وترك كل واحد منهم أيضًا خمسة من الولد فإن عددهم سيكون مئة وخمسة وعشرين، وسيكون نصيب الواحد منهم من تلك الأرض (٨٠٪) من الفدان.

وعليه أن يأكل من هذا القدر الضئيل وأن يبيع على نحو يمكّنه من شراء كل حاجاته المتسعة ودفع تكاليف تعليم أبنائه وتطبيبهم وكسوتهم... حيث إن العولمة تدفع الحكومات نحو التخلص من كل الخدمات المجانية التي تقدمها؛ ليواجه كل واحد مصيره على نحو منفرد.!

وهكذا فعبر قرن من الزمان تنخفض حصة الشخص من الأرض إلى أقل من (١٪)؟ وليس هذا من صنع الخيال بل هو الواقع المشهود والملموس. وليس الذين يعملون في الرعي بأحسن حالًا؛ فالأراضي المخصصة للرعي هي الأخرى تتفتت، وتزدحم فيها الماشية، ويزحف عليها العمران ويقل عطاؤها بسبب تراجع كمية الأمطار في معظم أنحاء الوطن العربي.

إن نسبة الزيادة السكانية في العالم الإسلامي بشكل عام مرتفعة إذا ما قسناها بما لدى الدول الأخرى. فعلى سبيل المثال يزيد السكان في الدول العربية سنويًا بنسبة (٣٪) في الحد الأوسط، على حين أن الزيادة في بريطانيا تبلغ (٠,١٪) وفي فرنسا (٠,٦٪). أما بلد مثل روسيا فإنه يعاني من نقص في السكان يصل إلى نحو مليون إنسان في السنة. وينقص عدد سكان ألمانيا نحوًا من مئة ألف شخص في السنة. وحتى نعرف حجم الزيادة السكانية وتطورها السريع، فإن من المفيد أن نعلم أن إجمالي سكان الوطن العربي كان عام (١٤٠٠هـ) نحوًا من (١٦٠) مليون نسمة. ويتوقع أن يكون وصل عام

(١٤٢٠هـ) إلى (٣٠٠) مليون نسمة. وإن بلدًا مثل الجزائر يتضاعف سكانه كل (٢٥) سنة، ومن المتوقع أن يرتفع إلى (٢٨٥) مليون نسمة خلال قرن!.

ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن الشعوب الإسلامية شعوب فتيَّة؛ حيث إن حوالي نصف السكان هم من الأطفال والأشبال دون سنِّ الخامسة عشرة. وهذا يعني أن لدينا أعدادًا هائلة تحتاج إلى تربية وتعليم واستيعاب نفسي واجتماعي، ثم إلى فرص عمل وخدمات عامة كثيرة.

ليست الزيادة السكانية في حد ذاتها مشكلة؛ على العكس إنها ميزة؛ حيث لا يمكن اليوم لدولة أن تصبح دولة عظمى إذا لم يصل سكانها إلى الخمسين مليونًا على الأقل. لكن علينا أن ندرك من وجه آخر أن الازدحام على موارد محدودة وعدم القدرة على تأمين الحد الأدنى من الحاجات الضرورية وتأمين تعليم وتدريب جيدين سيجعل من هذه الأعداد الغفيرة من الفتيان والشباب أشبه بجيش جرار لم يتلقَّ من التدريب ولم يجد من التنظيم ولا من التسليح ما يكفيه؛ إنه في هذه الحالة يصبح هدفًا سهلًا للعدو، إنه يصبح أرقامًا غير ذات معنى. وبعض العنصريين من الغربيين يقولون باستخفاف: إن في العالم خمسة مليارات من البشر، منهم مليار - أي أبناء العالم الصناعي - مواطنون والباقون سكان.!

في حديث القصعة وصف واضح للكثرة العددية الفاقدة للكيف والمضمون، فقد قال ﷺ: « **يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها** ». قالوا: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول اللّه؟! قال: « **لا؛ أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل...** »[١].

إذن مشكلة المسلمين في آخر الزمان ليست مشكلة (كم) ولكن مشكلة (كيف) و (نوعية).

عدم وجود تنمية جيدة في معظم أنحاء العالم الإسلامي دفع بأبنائنا وإخواننا إلى الهجرة إلى الغرب؛ حيث يشتغل معظمهم في مهن وضيعة يترفع الأوروبي عن العمل فيها. وهناك يضيع نصف الجيل الثاني ومعظم الجيل الثالث؛ حيث الانسلاخ شبه الكامل عن العقيدة والهوية. وعيش أبنائهم في الغرب على هامش المجتمع، دفع بهم إلى الجريمة والرذيلة وإدمان المخدرات، فصاروا يشكلون نسبة مخيفة من نزلاء السجون هناك! وتوجُّه فرنسا إلى منع الحجاب يشكّل نوعًا من التعبير القانوني عن الضيق من جالية باتت تشكل عبئًا على المجتمع. وهي بادرة خطيرة، وربما تحذو دول غربية حذوها، ويصبح الملتزمون من المسلمين في الغرب في وضعية أشبه بوضعية من وجد نفسه بين المطرقة والسندان. ومن واجبنا جميعًا أن نحول دون ذلك بكل وسيلة ممكنة.

---

(١) رواه أبو داود والبيهقي في دلائل النبوة.

لا أريد أن أتحدث أكثر من هذا عن الحاجة إلى تنمية اقتصادية تعتمد على أسس ومنطلقات جديدة، وإنما أحب أن أركز على نقطتين هنا:

الأولى: حتى يتحسن وضع فرص العمل، وحتى تتفتح حقول جديدة لكسب الرزق فإنه لا بد من الارتقاء بالتعليم، وتشجيع الناس على أن يتخذوا التدريب المنهجي مدخلًا لاكتساب المهارات وتنمية الشخصية.

إن التعليم في معظم أنحاء العالم الإسلامي يعد بالمعايير العالمية قاصرًا عن الوفاء بحاجات العصر؛ فالفصول مكدَّسة بالطلاب، وأسلوب التدريس مبني على أن يقوم المدرس بكل شيء، ويظل الطالب في موقع المتفرج وليس المشارك والمتفاعل. والتجهيزات المدرسية معدومة أو عند حدها الأدنى. والأهم من هذا وذاك فقد المدرسين والطلاب الحماسَ المطلوبَ لنجاح العمل التعليمي. ولا يختلف التعليم الجامعي في هذا كثيرًا عن التعليم الأساسي، مع استثناءات قليلة.

ولا شك أن هناك الكثير من الاقتراحات والحلول المطروحة للنهوض بالتعليم، لكن ستظل الأمور تزداد سوءًا ما لم تحدث تحولات جذرية في أوضاع المدارس وفي العلاقة بين البيت والمدرسة. وقد آن الأوان ليساهم الآباء في تأمين تعليم جيد لأبنائهم من خلال تشكيل عدد كبير من مجالس التعليم في

الأحياء والقرى، ويكون لها صلاحيات واسعة جدًّا في بحث أوضاع المدارس وتوجيهها ومحاولة النهوض بها. ولا بد من الآن فصاعدًا من أن يخصص كل واحد منا جزءًا من ميزانيته الخاصة لمؤازرة المدارس في القيام برسالتها من خلال التوسع في مبانيها وتدعيم مختبراتها وتجهيزاتها المختلفة.

التعليم الجيد وحده هو الذي يوجد في نفس الطالب الولاء لمدرسته ومن خلالها لوطنه وأمته. والتعليم السيئ يجعل الطالب زاهدًا في كل ذلك. وإلى جانب تطوير التعليم لا بد من إرساء تقاليد ثقافية تمجد التدريب على اكتساب المهارات والطرق الجديدة في إدارة الأعمال وتنفيذ المهام؛ فالتطور السريع الحاصل الآن في كل مجالات الحياة، سيجعل كل ما لدى الواحد منا من مفاهيم وخبرات ومهارات محدودة مدة الصلاحية، حيث تتسارع إليه الشيخوخة، وهو ما يزال في طور الصبا.

وقد أدركت الأمم المتقدمة ذلك، وصارت تنفق بسخاء بالغ على التدريب انطلاقًا من هذه الحقيقة. إن مجمل ما تنفقه اليابان على التدريب يزيد على (٨٠) مليار دولار في السنة. أما الولايات المتحدة فإنها تنفق ما يراوح بين (١٢٠) مليار دولار و (١٨٠) مليارًا. ولا بد من الآن فصاعدًا من أن نسلك كل سبيل لإقناع الناس بأهمية التدريب لدخول سوق العمل والاستمرار فيه. ولا بد أن يكون واضحًا في العقود

الجديدة تحديد ما ستقدمه المؤسسة أو الشركة أو المصنع أو الجامعة من تدريب وتعليم لمن سيعمل فيها.

الثانية: من المهم أن ندرك أننا في زمان فريد، بات ارتقاء الإنسان فيه منوطًا إلى حد بعيد بنوعية المهنة التي يعمل فيها، والتخصص الذي تعمق فيه؛ فنظرًا للتنظيم والتصنيف المتنامي للأعمال والمهن، ونظرًا لتحسُّن وعي الناس بواجباتهم الوظيفية صار الناس يبذلون جهودًا كبرى للوفاء بمتطلبات الوظيفة والمهنة، وما تفرضه من تعليم وتدريب وتنظيم للحياة الشخصية.

ونستفيد من هذا أن تحسين البيئة ورفع مستوى الناس يتطلب تأسيس توجه إلى الأعمال المتصلة بالمعرفة الرفيعة والجهد الذهبي المركَّز. ولك أن تقارن بين العاملين في القطاعات المهنية التي لا تتطلب أي جهد ذهني أو معرفة راقية مثل قطاع بيع التجزئة وقطاع الزراعة وقطاع الإنشاء... وبين العاملين في قطاع التعليم الجامعي والبحث العلمي وتقنية المعلومات والتدريب... وستجد صدق ما أريد توضيحه.

إن المجال الواعد اليوم هو مجال (تقنية المعلومات) وكل ما يتصل بمجال الحاسب وتطبيقاته المتَّسعة. وهذا المجال بات اليوم القطاع الصناعي الأول؛ حيث تزيد قيمة أعماله على (التريليون) دولار. ونحن أمة غنية بالموارد البشرية. وهذا المجال يحتاج أساسًا إلى العنصر البشري المتعلم وإلى البيئة

المنظمة تنظيمًا جيدًا. ولا يحتاج هذا وذاك إلى أموال طائلة.

إن العالم كله اليوم يخوض سباقًا محمومًا نحو ترسيخ أقدامه في هذا المجال. وقد وضعت بريطانيا خطة لتطوير البلد تقنيًا، قيمتها خمسون مليار جنيه. وعلى ضخامتها فقد ذكر أحد الباحثين أنها غير كافية وجاءت متأخرة!.

ووصفت إحدى المنظمات الدولية الدول العربية بأنها جائعة معلوماتيًا على حين أنها وصفت (إسرائيل) بأنها دولة نَهمة معلوماتيًا. وقد أضحت (إسرائيل) اليوم الدولة الأولى في أَمن المعلومات، وهي تصدر منتجات معلوماتية إلى أوروبا وأمريكا والصين في غاية التطور والتعقيد، وتقبض أثمانًا عالية لها.

إن من المهم جدًا ألا نتأخر أكثر مما حدث عن الاستثمار في قطاع المعلومات والتقنية المتقدمة من أجل الارتقاء بالمسلم المعاصر، ومن أجل إيجاد فرص عمل للأجيال الجديدة في مجال هو الأسرع نموًا بين مجالات العمل المختلفة. وإذا لم نفعل ذلك فإن الأعداد المتزايدة من هؤلاء الذين تدفع بهم الأرحام سوف تتحول إلى قنابل موقوتة تدمر نفسها وبيئتها في آن واحد.

ومسؤولية التقدم في هذا الشأن ملقاة على عاتق الأسرة والمدرسة والدولة ورجال الأعمال. وعلى كل راشد فينا أن

يحاول مساعدة نفسه والارتقاء بذاته حيث أعرض الآخرون عن مساعدته.

* * *

على المدى البعيد (٤)

لاحظ مالك بن نبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المجتمعات الإسلامية تعاني من (فرط تسييس) حيث إن هناك ميلًا عارمًا إلى مطالبة الدول بأن تقوم بكل شيء على حين يظل معظم الناس غافلين عاطلين.

وملاحظته - في ظني - في مكانها؛ حيث إن كثيرًا من الإصلاحيين على اختلاف مشاربهم يركزون باستمرار على ما على الحكومات أن تقوم به من إصلاح نفسها، وإصلاح غيرها على حين أن كثيرًا منهم لم يستطيعوا المساهمة العملية في نهضة الأمة؛ وكأن اعتقادنا بأن كلام المرء جزء من عمله، جعلنا نظن أننا بالخطب الرنانة والمقالات البليغة والكتب ذوات المئتين من الصفحات نستطيع أن نحل مشكلاتنا المستطيلة في الزمان والمستعرضة في المكان!

في البداية أحب أن أؤكد أن من المهم أن يشتغل بعض الناس في العمل السياسي من خلال نشر الوعي بطبيعة هذا المجال ومن خلال ممارسة النقد ودخول الانتخابات وتشكيل الأحزاب؛ إنني لست ضد هذا، ولا أهوِّن أبدًا من شأنه، ولكن الشيء الذي لا أرى أنه صواب هو الظن بأنه حين تقوم دولة حسب المواصفات المطلوبة سوف نتخلص من

كثير من الأزمات والمشكلات الموجودة. إن هذا أكثر الأوهام انتشارًا.

كثير من الجماعات الإسلامية المشتغلة بالسياسة علقت كل توازنها على الحكومة العظيمة التي ستشكلها في المستقبل حين تصل إلى الحكم. وبما أن المجال السياسي، لا يتسع لكل الناس، ولا يستطيع كثيرون العمل فيه، فإن أعدادًا كبيرة من شبابها عاطلون عن أي عمل دعوي أو اجتماعي نافع!.. وجود الدولة في الأصل شيء مكروه من النفوس؛ لأنها تمثل سلطة وقوة، وهي - على المستوى الوظيفي - أميل إلى أن تكون كابحة وضابطة أكثر من أن تكون بانية أو مُصْلحة. وإذا استطاعت الدولة حماية النظم السارية وتطبيقها دون تحيز إلى جانب دعم استقلالية القضاء وتسهيل حركة الفرد مع حد مقبول من المرافق العامة فإنها تكون قد قامت بأشياء عظيمة جدًّا. ومعظم دول العالم ما زالت تخفق في تحقيق ذلك.

العمل الأساسي الذي يُنْتَظر من الجميع المساهمة فيه هو العمل الاجتماعي بأوسع ما تتحمله هذه الكلمة من دلالة... في العالم اليوم قطاع يسمونه (القطاع الثالث) أو (القطاع غير الربحي) إنه شيء غير القطاع العام الذي تكون مؤسساته ملكًا للدولة وغير القطاع الخاص المملوك للأفراد، إنه القطاع الذي تملكه الأمة. مهام هذا القطاع أوسع بكثير

مما نتصوره، وإن الأمم من خلاله تستدرك على قصور النظم المختلفة، إنه يشكل كرَّة أخرى على طريق العدالة الاجتماعية وإيصال الحقوق لأصحابها. إن أنشطته تغطي حاجات أولئك الناس الذين لا يقع الاهتمام بهم. تحت مسؤولية أي وزارة أو مؤسسة حكومية، وإنه يهتم بالقضايا التي لا تهتم بها أي جهة حكومية. وأستطيع أن أقول دون أن أشعر بالحرج: إن اتساع هذا القطاع يدل على نحوٍ قاطع على خيرية المجتمع وتضامنه وفعاليته واستحقاقه لاسم (مجتمع) وعلى مقدار ضِيق هذا القطاع وضعفه يكون ضعف المجتمع وتفككه وخموله، وقد لا يستحق اسم (مجتمع) ويكون جديرًا باسم (تجمع)!.

إن ما ينشر من إحصاءات عن هذا القطاع يدل دلالة واضحة على أن العالم الصناعي يتمتع بمجتمعات غنية بالمؤسسات والأنشطة غير الربحية. وقد استطاع هذا القطاع أن يجمع من الناس في الولايات المتحدة الأمريكية عام (٢٠٠٠) مبلغًا قدره (٢١٢) مليار دولار. وهو رقم فلكي لا يمكن جمع نصفه أو ثلثه في أي دولة من العالم. في أمريكا مليون ونصف مؤسسة لا ربحية. وفي (إسرائيل) ثلاثون ألف مؤسسة لا ربحية. ويستوعب القطاع غير الربحي (١١٪) من القوة العاملة هناك. في العالم الغربي لكل ثلاث مئة شخص تقريبًا مؤسسة لا ربحية من نوعٍ

ما وعندنا في العالم العربي لا يحصل الـ (٥٠٠٠) شخص على أكثر من مؤسسة، أي إن الفارق يتمثل في خمسة عشر ضعفًا. ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار إلى جانب هذا أن الذين يحتاجون إلى العون في مجتمعنا أكثر بكثير من المحتاجين في مجتمعاتهم.

إن هناك أشياء مشتركة بين الأمم. وهناك أيضًا خصوصيات لكل أمة. **إن المجتمعات الإسلامية بحاجة إلى الكثير الكثير من المؤسسات غير الربحية وسأذكر منها هنا نماذج فقط:**

• مؤسسات ومشروعات لدعم الالتزام والمحافظة على الأخلاق والوقوف في وجه التحلل الخلقي عن طريق الاتصال المباشر والحوار مع الناس ووضع لوحات في الطريق وإعلانات في الصحف. بل إن القطاع غير الربحي يحتاج في الحقيقة إلى فضائية وإذاعات خاصة حتى نؤصل حب العمل الخيري في نفوس الناس. أضف إلى ذلك تأسيس جمعيات لمحاربة العادات السيئة؛ مثل: الإدمان على التدخين والخمور والمخدرات، ومثل: عادات الإسراف والتبذير في المأكل والملبس والمسكن وإرشاد الناس إلى بعض الطرق الاقتصادية في كل ذلك، كما هو الشأن في كثير من الدول.

• مؤسسات للاهتمام بالأسرة وتوجيهها في مسائل

التربية ومساعدتها على حل المشكلات التي تواجهها وتوفير مرشدين تربويين ومرشدات تربويات لإصلاح العلاقات الأسرية وتنمية وعي الناس بأهمية التضامن الأسري وتوضيح مسؤولية كل طرف في ذلك، ونشر عدد كبير من الكتيبات والنشرات التي تعلم الناس أصول التربية الجيدة، كما توضح لهم الأخطاء التربوية التي يقعون فيها.

• مؤسسات وجمعيات وروابط لدعم العلم والتعليم؛ حيث إن الدول ما عادت تستطيع توفير ما يكفي من المدارس والتجهيزات المدرسية لهذه الأعداد المتدفقة من الأطفال والفتيان. والتعليم الخاص الحالي هو أقل في كثير من الأحيان من المستوى المطلوب، وهو إلى جانب ذلك ينشر الطبقية الاجتماعية والمعرفية؛ فأبناء الأغنياء يجدون مدارس ممتازة لأنهم قادرون على الدفع، وأبناء الفقراء لا يجدون في بعض الأحيان حتى المدارس السيئة.

وبعض الدول الإسلامية - مثل باكستان - لم تستطع إلى الآن إصدار تشريعات لجعل التعليم الابتدائي إلزاميًا بسبب عدم قدرة الدولة على توفير المدارس الكافية. وهناك دول لا تستطيع توفير الكتب المدرسية لأبنائها - كما هو الشأن في بلاد عديدة مثل إندونيسيا، وهكذا...

قد آن الأوان ليقوم الناس بدعم التعليم الحكومي والمساهمة في توجيه أنشطته وممارسة نوع من الرقابة عليه بما

يخدم التقدم العلمي في البلد. كما آن الأوان لتأسيس عدد كبير من المدارس الخيرية التي يجد فيها أبناء الفقراء فرصًا للتعلم. وفي بعض الدول - مثل تركيا - أنشئت مجالس كثيرة جدًّا لدعم التعليم الجامعي وتوفير منح للطلاب الفقراء؛ حيث إن الجامعات الحكومية لا تستوعب سوى (١٠٪) من المحتاجين للتعليم الجامعي.

إن من المهم أن ننظم حملات واسعة من أجل قيام الأثرياء بتأسيس شبكات من المدارس والمعاهد العلمية والتقنية لأبناء الفقراء والمعدمين والإنفاق عليها عوضًا عن تبذير المال في السياحة في الغرب أو إنفاقه على مظاهر كاذبة لا تزيد صاحبها إلا خبالًا وسأمًا!

في الأمة اليوم مظالم كثيرة، ولا يكاد يخلو مجلس من المجالس من ذكر مظلمة من المظالم! وقد صارت مهمة المحامين في كثير من الدول الإسلامية - مع الأسف الشديد - طمس الحقيقة وإضاعة الحقوق والعمل على تأجيل المحاكمات إلى ما لا نهاية. وتسربت الرشوة إلى سلك القضاء مع استثناءات مقدرة!. إن هذه الوضعية تستلزم قيام مؤسسات وروابط ومنظمات لنصرة الضعيف، ورفع الظلم عن المظلوم ومؤازرة المضطهد وفضح أشكال الحيف. وقد أثنى ﷺ على حلف الفضول الذي أقامته قريش في الجاهلية، وحضره - عليه الصلاة والسلام -

وقال: « **ولو دعيت إلى مثله لأجبت** » [١]. وقال أيضًا في حديث صحيح: « **إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف حقه فيها غير متعتع** » [٢].

إن التعليم والقضاء يشكلان محورين أساسيين في حياة أي أمة وإن في فسادهما فساد الحياة كلها. فعلينا أن نصلح من شأنهما قدر الاستطاعة، ولن يكون ذلك إلا من خلال توفير رقابة شعبية واسعة، ولن تكون تلك الرقابة فعالة إذا لم تنظم وتؤطر على نحو جيد.

الأمية في العالم الإسلامي ضاربة أطنابها. وما زال المعدل الوسطي لها يدور في فلك الـ (٤٠٪) وهذا شيء مخيف في زماننا فقد احتفلت اليابان بتعليم آخر أميٍّ في أواخر القرن التاسع عشر.

ولدينا أناس يعرفون القراءة والكتابة لكنهم لا يقرؤون. وكما قال أحدهم: ما الفرق بين الأمي وبين من يحسن القراءة لكنه لا يقرأ؟

إن حالة القراءة وطلب العلم والحرص على معرفة الجديد في حالة من التردي المستمر في عالمنا الإسلامي. والكتاب يفقد في كل يوم جزءًا من أرضه لصالح ما يمكن أن نسميه (اللّهو المطلي بالمعرفة) وهذا يلقي علينا مسؤولية هائلة.

---

(١) رواه أحمد في مسنده. (٢) اللسان (تَعَعَ).

إني أفترض أن يكون لدينا في كل حي من الأحياء مكتبة عامة يضعها أحد الأثرياء في زاوية من داره ليرتادها أهل الحي وتكون مكانًا لالتقائهم ومناقشة أمور حيهم. وأتعشم أن يكون هناك برامج لدعم الكتاب الجيد، وأن يكون هناك مهرجانات للقراءة ومكتبات متنقلة لنشر العلم وإعارة الكتاب. وقد سبقتنا دول كثيرة إلى هذا، ولم يعد لدينا وقت لإضاعته. إنّه من غير شغف حقيقي بالعلم واتخاذه أساسًا للتطوير لن نستطيع أن نتجاوز الأوضاع الصعبة التي نعيشها.

العولمة تشجع الحكومات على أن تنفض يديها من كل الخدمات المجانية والرخيصة التي تقدمها، ومنها (العلاج الصحي). والخدمات الصحية الحكومية في كثير من بلدان العالم الإسلامي في حالة من التدهور؛ حيث يلجأ الناس إلى الطب الخاص. وهناك تجد أشكالًا من التحايل والابتزاز مما يوجب قيام مؤسسات طبية لا ربحية يعمل فيها الأخيار من الأطباء، وتتقاضى أجورًا تكفي فقط لتشغيلها.

وقد قامت تجارب رائدة في بعض البلدان الإسلامية في هذا المجال، إنها تقدم أفضل علاج، لكن بسعر لا يزيد عن (٣٠٪) مما لدى غيرها. إني أتصور أن يكون هناك جمعيات للعناية بأصحاب الأمراض المزمنة والمستعصية، وجمعيات لتوفير الدواء لمن لا يجد ثمنه، وجمعيات لدعم

المستشفيات الحكومية بالأجهزة وهكذا. ولا أريد هنا أن أتحدث عن قضية الفقر لأنني سأفرد لها حديثًا خاصًا.

إن العمل الخيري التطوعي يستهدف: **أولًا**: الارتقاء بنفوس فئة كبيرة من المجتمع وربطهم بالله - تعالى - وهذه الفئة هي العاملون والمحتسبون في المجال غير الربحي. ويستهدف **ثانيًا**: سد حاجات العناصر الضعيفة في المجتمع، وهي في عالمنا الإسلامي كثيرة جدًا بل تشكل النسبة الأكبر من الناس. وسنظل نعيش على هامش العالم ما لم نبدع في إيجاد الحلول للمشكلات التي جاءت بها الحضارة المعاصرة.

* * *

أزمة وسائل أم أزمة أهداف؟

إنه ما اجتمع لفيف من المهتمين بالدعوة والغيورين على صلاح الناس إلا دارت بينهم أحاديث ومجادلات وشكايات حول عجز الدعاة عن امتلاك الوسائل الدعوية التي يتمكنون من خلالها من نشر أفكارهم وتعميم مبادئهم ومقولاتهم. ونحن لا نملُّ من المقارنة بين تخلف وسائلنا وتقدم وسائل الآخرين من منافسين ومعادين.

ولسنا في ذلك - في كثير من الأحيان - مخطئين أو مبالغين، إذ مما لا شك فيه أن العمل الدعوي يعاني من نقص ظاهر في الوسائل التي يمكن أن تستخدم في تبليغ رسالة الإسلام؛ حيث إنك لا تكاد تجد فضائية إسلامية ذات تميز واضح وجاذبية عالية. كما أنك لا تجد شيئًا من ذلك في مجال البث الإذاعي أو في مجال الإعلام المقروء؛ فالمجلات والجرائد الإسلامية قليلة العدد نسبيًا ومستوى معظمها على المستوى المهني يتردد بين المتوسط والضعيف، ولا يختلف الشأن في (خطبة الجمعة) حيث إن الخطباء القادرين على تشخيص الحالة الإسلامية ووصف العلاج لها قليلون جدًا.

لكن مع هذا فالمهم دائمًا أن ندرك الأسباب الجوهرية لما نرى من ظواهر ووقائع ومشكلات، ولما نشكو منه من

قصور ومنغصات وأزمات، ومع أن تخلف المسلمين وضعف مؤسساتهم المختلفة سينعكس ولا ريب على كل الوسائل التي بين أيديهم في كل شؤون الحياة، إلا أن ذلك ليس هو السبب الجوهري في تخلف الوسائل الدعوية، وإنما يكمن السبب الأساسي في أن معظم الدعاة لا يملكون الأهداف الواضحة لحركتهم الدائبة. الهدف الجيد الواضح والمدروس يجعل من نفسه أداة لتحريض الذين بلوروه على إيجاد الأساليب والوسائل التي تبلّغهم إياه. وإن كثيرًا من الأهداف الدعوية لا يفعل ذلك؛ لأنه لا تتوافر فيه سمات الهدف الجيد؛ ومن ثم فإنه يُدرَك بطريقة مبتذلة أو بطريقة غامضة، مما يفقده سمة التحريض التي أشرنا إليها.

أزمتنا الأساسية إذن في فقد الهدف الجيد وليست في الافتقار إلى الوسيلة الناجحة. وأزمة الهدف الجيد هي نتيجة قصور بنيوي يعاني منه العمل الدعوي منذ مدة ليست بالقصيرة. وذلك القصور يتمثل في ضعف فهم نوعية الحركة المطلوبة لهداية الناس وإصلاح شؤونهم ونوعية الخطاب الذي تجب صياغته في كل ذلك. وهذا يترتب عليه عدم القدرة على تحديد الأولويات التي يجب أن توجّه إليها معظم الجهود والإمكانات، مما يدفع الناس إلى أن يعملوا في كل اتجاه، وأن يهتموا بكل شيء لكن دون تحقيق اختراقات جيدة في أي مجال من المجالات.

إننا إذا امتلكنا الهدف الجيد فقد نتمكن من امتلاك الوسيلة المناسبة، وقد لا نتمكن، لكن إذا لم نمتلكه، فإننا قطعًا لن نعرف الوسيلة المطلوبة، ولن نصل من ثَمَّ إليها.

لو تأملنا في سير المصلحين العظام الذين عدَّلوا في اتجاه التاريخ الإسلامي لوجدنا أن أكثرهم - إن لم نقل جميعهم - لم يكونوا يملكون أي إمكانية جيدة أو وسيلة فعَّالة لنشر أفكارهم وإصلاح الأوضاع العامة عند انطلاقتهم الأولى، لكن نجد أنهم كانوا - على مستويات مختلفة يعرفون ماذا يريدون، وكانت الأشياء التي يعملون من أجل الوصول إليها تلوح أمامهم في الأفق.

ولا يختلف وضع مصلحي الأمم الأخرى عن وضع مصلحينا؛ فاليهود الذين اجتمعوا في سويسرا في أواخر القرن التاسع عشر - كانوا يعانون من عزلة عالمية، ومن شيء من الاضطهاد في بعض البلدان - وفي ذلك الوقت توصلوا إلى أنهم يستهدفون إقامة دولة لهم على أرض فلسطين بعد خمسين سنة. وإن الذي ينظر إلى ضآلة ما بين أيديهم من إمكانات وإلى صعوبة تحقيق ذلك الهدف في ظل الحكومات العثمانية، يستغرب من ذلك الطموح، لكن العمل الشاق والمثابر نحو الهدف المحدد يوجِد بطبيعته الكثير من الظروف الملائمة ويوفِّر الكثير من الإمكانات المطلوبة وهذا ما حدث.

بعض الذين يشتغلون بالدعوة إلى الله - تعالى - يغلب

عليهم قصر النظر، فهم لا ينظرون إلى بعيد، ولا يستطيعون التأمل في مآلات الأشياء، وهذا يحرمهم من رؤية ما هو كامن من إمكانات ومعطيات وعقبات. وهم لهذا مشغولون بما هو ناجز ظانين دوامه واستمراره، مع أن التقدم العلمي والتقني الذي يحدث الآن يجعل ناموس الحياة الأساسي في التغير والتبدل، وليس في الثبات والاستمرار.

وهناك ممن يشتغل بالدعوة من يغلب عليه الحسّ العملي، وينظر إلى التخطيط وبناء الإستراتيجيات وبلورة الأهداف على أنه مضيعة للوقت، وليس هناك ما يدعو إليه. وهو في نظره قد يكون مظهرًا من مظاهر الفرار من العمل وتحمل المسؤوليات الكبيرة. وهذه الشريحة واسعة جدًّا وإلى حد لا يُصدَّق!.

ومن المؤسف أن فيمن يشنِّع على التخطيط الدعوي من لا يخطط ولا ينظِّر، كما أنه في الوقت نفسه لا يعمل ولا ينتج، فهو في الحقيقة يعاني من عطالة شاملة، ولو سئل عما قدَّمه للأمة خلال أسبوع أو شهر مضى لم يجد شيئًا يتحدث عنه، وهناك من يعمل من غير رؤية راشدة ولا أهداف واضحة ولا فقه للأولويات، وهؤلاء أسوأ حالًا من أولئك؛ لأن حركتهم قد تفضي إلى حدوث كوارث!

الهدف الجيد يحتاج إلى أن نرسم خطة لتنفيذه، وتلك الخطة يجب أن تشتمل على الإمكانات والأوقات المطلوبة؛

بالإضافة إلى العقبات المتوقعة، وبذلك وحده نجد أنفسنا مضطرين إلى البحث عن الوسيلة الفعالة والملائمة.

لست ممن تتملكه الرغبة بإغراء الآخرين بالبحث عن المستحيل وسلوك الطرق الوعرة لبلوغ الرغائب؛ لأن مشكلتنا الأساسية ليست مع المستحيل الذي نتمناه، ولكن مع الممكن الذي ضيّعناه!

فيا أيها الذين خنقهم الواقع بمعطياته الصعبة، فحرموا من رؤية الآفاق الممتدة التي تنتظرهم، ويا من أدمنوا الشكوى من ضعف الحيلة وانعدام الوسيلة... امنحوا أنفسكم الوقت الكافي للعثور على أفضل تحديد ممكن لما ترغبون في تحقيقه، وسوف تجدون أن ذلك سيجعل وسائلكم أكثر تقدمًا وفاعلية، كما أنه سيجعلكم أكثر واقعية، وسيكون لكم من وراء هذا وذاك إدارة أجود للإمكانات المحدودة التي بين أيديكم.

* * *

العقلية الناضجة

في كل يوم يمر على العالم تكسب المعطيات الفكرية والمعرفية أرضًا جديدة، كما تتم تحولات متسارعة نحو التقليل من الجهد البدني وتقليل الاعتماد على الأشياء المادية المستخدمة في التقدم الحضاري لصالح العمل الذهني والدوافع والمفاهيم والنظم، وما شاكلها من معطيات غير مادية. وهذه التحولات تملي علينا زيادة الاهتمام بالتربية العقلية وإثراء عالمنا الثقافي بالمزيد من المعاني التي تحسّن درجة وعينا بما نملك من أساليب التفكير وأدواته، وما نملك من الأسس والمفاهيم التي نتعامل بناءً عليها مع مفردات الوجود المختلفة.

إذا أردنا تعريف (العقلية) فإننا سنواجه الكثير من الغموض والضبابية، مع أننا نستطيع أن نلمس تجلياتها في الكثير من ضروب السلوك الفردي والاجتماعي. إذا ما أصررنا على وضع تعريف للعقلية، فلا بد من أن نرضى بتعريف منقوص وغير حاسم. وتأسيسًا على هذا فإنه يمكن لنا أن نعرّف العقلية تعريفًا إجرائيًا فنقول: إنها مجموعة الطرق والأساليب والمفاهيم المترابطة والراسخة التي نستخدمها في استيعاب الواقع الموضوعي والتي نحدد في ضوئها مواقفنا من الأحداث والأشياء، وننظِّم على هديها ردود أفعالنا.

إنه يمكننا مع شيء من الجرأة وشيء من التسامح أن نقول: إن للعقلية شكلًا ومضمونًا. وإن الشكل يتمثل في طرق التفكير وأساليبه. أما المضمون فيتجسّد في مجموعة المفاهيم المترابطة التي تشكل رؤيتنا للحياة، كما تشكل المعايير التي على أساسها نقيّم الأشياء. النضج العقلي هو دائمًا شيء نسبي؛ فالبشرية كائن يتعلم باستمرار. والكمال في هذا الباب شيء نرومه ونناهزه، لكننا لا ندركه. ذلك النضج يتعاظم كلما زادت خبرة العقل بطرائق عمله، وكلما اكتشف أوجه القصور في طبيعة تركيبه؛ بالإضافة إلى امتلاكه المفاهيم التي تسمح له بالتفتح والنمو والمراجعة.

وإذا أردنا أن نتحدث عن كل الأشياء المهمة في شكل العقلية ومضمونها، فإننا سنحتاج إلى تسويد الكثير من الصفحات، فلنقتصر إذن على بعض الأساليب والمفاهيم الأكثر أهمية، والتي تشير إلى درجة جيدة من النضج العقلي على مستوى الشكل وعلى مستوى المضمون. **لو تساءلنا عن طرق النظر ونظم التفكير والتجسيدات التي تتجلى فيها العقلية الناضجة لأمكننا أن نعد منها الآتي:**

١ - الوعي بطبيعة تركيب العقل:

العقل نعمة من أجلِّ النعم التي أنعم اللَّه - جلَّ وعلا - بها على الناس. وهو وسيلتنا الأساسية في استثمار المعلوم من أجل الوصول للمجهول في عمليات نسميها (التفكير). إن

كفاءة عقولنا بوصفها مبادئ وإمكانات فطرية، وبوصفها مكتسبات ثقافية وخبرات حياتية تظل مرتبطة بمدى ملاءمة تجهيزاتنا العقلية والثقافية للقضايا والموضوعات التي نريد اجتراحها والإمساك بها.

وقدراتنا الذهنية مهما كانت فذة ومتفوّقة فإنها في النهاية محدودة وبسبب هذه المحدودية تظل هناك فجوةٌ ما بين وضعنا الإدراكي وبين طلاقة الإرادة والطموح والتطلع، مما يجعلنا نشعر دائمًا بالعجز والارتباك الذهني حيال القبض على الواقع. إننا لا ندرك سوى القليل القليل من الأُحداث الجارية والفرص السانحة والعقبات المعترضة؛ ولذا فإننا حين نفكر نشعر بأن ما لدينا من معطيات ليس كافيًا لإصدار أحكام قاطعة، ونظل نشعر أننا نقف على أرض غير صلبة. صاحب العقلية الناضجة يدرك هذه المعاني. وهذا الإدراك يملي عليه ضرورة الاحتياط في إطلاق الأحكام والتعميمات.

العقل البشري لا يتمتع بذات مستقلة متميزة على نحو تام، وإنما يظل على حالة من التفاعل مع المعطيات العلمية التي تفد إليه، ومع المشكلات التي يعالجها أيضًا، مما يعني أن العقل وهو يمنحنا الرؤى والحلول، يقوم بتنمية ذاته وتطوير مقولاته ومراجعة طروحاته؛ ولذا فإنه ليس هناك أي ضمان لاطراد تقدم أي مفكر في خط واحد. وثبات العالم على تحليلاته وتصوراته الجزئية - في هذا المنظور - لا يدل على

رسوخ عقله بمقدار دلالته على جموده وعطالته عن العمل.

العقل البشري كثيرًا ما يكون قادرًا على كشف الخرافة وتعريتها لكنه - مع الأسف - لا يملك في تكوينه الأصلي ما يمنعه من صناعة الخرافة وقبولها. وإذا نظرنا في حياة كبار العلماء والمخترعين وجدنا لديهم خطوطًا على أرقى درجة من درجات المنهجية. وتلك الخطوط تجاور توجهات عقدية هي في غاية الخرافة والضلال! وذلك قد يعود إلى أن العقل ليس هو الذي يرسم كل دوائر المعقول واللامعقول، وما تجيز العادة وقوعه وما لا تجيز، وإنما يشاركه في أكثر ذلك الثقافة والخبرة. وهكذا فقد يكون الشيء معقولًا عند شخص وغير معقول عند آخر نظرًا لتفاوت معرفتهما بذلك الشيء على نحو جذري. سيظل النضج العقلي لدى أي واحد منا مرتهنًا لمدى ما نحرزه من تقدم في فهم طبيعة تركيب عقولنا ونقد طرق عملها. وهذا ليس باليسير؛ إذ إن على العقل آنذاك أن يقوم بدور النحّات والحجر جميعًا!

٢ - تنظيم التفكير:

التفكير عملية مكروهة وشاقة؛ ولذا فإننا لا نلجأ إليه إلا عند الحاجة الشديدة. وقلة لجوئنا للتفكير تجعل خبراتنا في الممارسة الصحيحة له محدودة. حين نحاول التفكير في قضية من القضايا فإننا غالبًا ما نصاب بالحيرة والارتباك

والخلط؛ وذلك لأننا حين نبدأ بالتفكير تسيطر علينا رغبة جامحة في أن نصل إلى أفضل رؤية في أقصر وقت.

وعلى سبيل المثال فإن المرء حين يفكر في إقامة مدرسة أهلية، فإنه تتوارد عليه خلال التفكير المعلومات عن المدارس المناظرة، وصور النجاح الذي حققه بعضهم في هذا المجال وصور الإخفاق أيضًا، إلى جانب المشاعر والأحاسيس الخاصة... ويدخل العقل في دوامة من الحسابات وعقد المقارنات، وبعد جولات عديدة من التفكير قد يُعرض الإنسان عن المشروع؛ لأنه لم يستطع تبين جدواه. وقد يقدم عليه دون أن يشعر أنه اتخذ القرار الصحيح... ولذا فإن تنظيم التفكير يساعد مساعدة غير قليلة على اتخاذ القرار الصحيح. **ومن الخطوات الأساسية فيه الآتي:**

أ - توفير المعلومات والبيانات التي تخص القضية أو المشروع أو الحل موضع المعالجة: المعلومات بالنسبة إلى العقل أشبه بالبرامج التي نزود بها الحاسوب. ولكن لا بد أن ننتبه إلى مدى دقة تلك المعلومات ومحاولة تصنيفها، فهناك معلومات موثوقة على نحو تام، وهناك معلومات نصف موثوقة. وهناك عقائد تخص المشروع أو المشكلة، لم تتعرض لأي اختبار أو مراجعة؛ ولذا فقد تكون خاطئة. إن من طبيعة المعلومات أنها تقبل التزوير والمتاجرة. وصاحب العقلية

الناضجة يعرف هذا على نحو جيد.

نقطة أخرى جديرة بالاهتمام، هي أن المعلومات حول قضية معينة حين تكثر كثرة غامرة فإنها كثيرًا ما تتقاطع وتتناقض، مما يربك العقل في التعامل معها، ويدفعنا من ثمّ إلى غض الطرف عن كثير منها، والاقتصار على بعضها. وكثيرًا ما يتم ذلك بطريقة غير موضوعية. أضف إلى ذلك أن كثرة المعلومات حول أسلوب أو خيار أو حل، قد تحجب عنا ميزة الحلول والأساليب الأخرى التي لم يتوافر لها قدر كاف من البيانات.

ب - تسليط الوعي على العواطف والمشاعر تجاه القضية موضع التفكير. ومن الواضح أن المشاعر الإيجابية تنقلب على نحو سهل إلى ميزات، كما أن مشاعر الكراهية تنقلب إلى سلبيات. حين يكون المرء راغبًا في سكن مدينة من المدن، فإن العقل يقوم ببلورة عدد من الميزات للعمل في تلك المدينة. والعكس صحيح. ولذا فإن من المهم للمرء أن يكون على وعي بموقفه الشعوري من القضية التي يفكر فيها. إن المعالجة العقلية تعتمد دائمًا على معطيات موضوعية. والمسائل الشعورية والعاطفية هي دائمًا مسائل شخصية ولا ينبغي لهذه أن تشوش على تلك.

جـ - في أحيان كثيرة يكون لدى الواحد منا عدد من الخيارات. وعلى مقدار ما نملك من نضج عقلي نصير إلى

أفضل الخيارات المتاحة. نحن نعرف أنه ما من خيار على أي مستوى، وفي أي مجال إلا وله إيجابياته وسلبياته؛ إذ لا يمكن الحصول على أي شيء ذي قيمة دون دفع الثمن المكافئ له. وهذا يدعونا إلى أن نقوم بعملية عصف ذهني حول إيجابيات المشروع أو الحل أو الأسلوب الذي نرغب في اكتشاف أبعاده. وعملية العصف تتطلب نوعًا من الإصغاء التام لكل الخواطر الإيجابية التي ترد إلى الذهن والقيام بتسجيلها واستشارة أهل الخبرة في ذلك. ثم نصير إلى مناقشة تلك الإيجابيات وتمحيصها، لنرى مدى صدقها. وعلينا أن نفعل مثل ذلك تجاه الخواطر السلبية. وعلينا أن نفعل ذلك في عمليتين منفصلتين.

ومعالجة الخواطر على هذا النحو تحمينا من سيطرة الأفكار الإيجابية أو السلبية علينا وتوجيهها لنا؛ مما يؤدي بالتالي إلى تشويه عملية التفكير وحرفها عن مسارها الصحيح.

د - لا بدَّ لنا ونحن نفكر بأن نمتلك أكبر قدر ممكن من اليقظة حيال القيود غير المدرَكة التي تحول دون طلاقة العقل في عمله، وهي في الحقيقة كثيرة. ومعظمها يعود إلى العادات الفكرية التي ترسخت لدينا عبر الزمن. إن كثيرًا من الناس يكونون مستقطبين خلال عملية التفكير بين حدين لا ثالث لهما على مبدأ: إما هذا وإما ذاك؛ كمن يقول: إما أن أقيم المشروع الفلاني وإما أن أترك العمل الصناعي كله. وهذا

يجعل العقل لا ينفتح نحو أي خيار أو حل أو اتجاه ثالث. وهذا كثيرًا ما يكون نتيجة تربية اجتماعية سيئة تقوم على رؤى أحادية بسيطة، وعلى عصبيات مقيتة.

هناك أناس كثيرون يفكرون في حل بعض المشكلات وهم عازمون على عدم تحمل أي أعباء إضافية، أو تغيير أي قانون أو إزعاج أي أحد. ومع أن هذا ممكن في بعض القضايا الصغيرة، وفي بعض الأحيان، إلا أنه في أحيان كثيرة يكون غير ممكن. ومن ثمَّ فإنهم على كثرة ما يجتمعون لا ينتهون إلى أي شيء!

بعض الناس يفكر وهو يرزح تحت وطأة مفهوم معين يسيطر عليه. وذلك المفهوم يشكِّل في النهاية ما يشبه الإطار الذي يحد من حركة العقل، كما يفعل القائد العسكري الذي يسيطر عليه مفهوم أن عدوه لن يبدأ الهجوم عليه، أو لن يستخدم السلاح الجويّ؛ فإن كل خططه العسكرية تتشكل في ضوء ذلك المفهوم، وهذا يشكل خطورة بالغة على نوعية حصيلة التفكير.

هـ - بعد أن ينتهي المرء من بلورة الأفكار التي كان يعمل على الوصول إليها يبقى عليه أن يقوم بعملية (تقويم) للأفكار التي حصل عليها. وهذه العملية مهمة من أجل معرفة موقع هذه الأفكار من الصورة العامة لحياته وطموحاته وظروفه.

- إذا كانت الأفكار تتعلق بحل معضلة من المعضلات فإن من الممكن أن يدقق المرء في الأمور الآتية:

• مدى قابلية الحل المقترح للتطبيق؛ وهل الأشخاص الذين سيقومون بتنفيذه راضون به، ويعتقدون أن تطبيقه ممكن؟

• مدى توافر الموارد والإمكانات التي يحتاجها ذلك الحل. والموارد تشمل المال والوقت والعنصر البشري والأساليب الفنية والآلات والدوافع والنظم. وتدلنا التجربة على أن كثيرًا من الناس يبدؤون في إقامة مشروعات دون أن تتوافر لهم إمكانات إنهائها ثقة منهم بأن الموارد المطلوبة سيتم توفيرها في المستقبل، ثم يتبين لهم أن ذلك كان وهمًا!

• هل الحل الذي تم الانتهاء إليه هو أفضل الحلول فعلًا نظرًا لميزاته ومنافعه التي لا يحظى بها أي حل آخر؟

• هل الحل المقترح مناسب للسياسات التي نتبعها، وهل هو ملائم لوضعية الأشخاص الذين سيستفيدون منه، وما مدى ملاءمته للظروف التي نمر بها؟

• هل الحل المقترح حل جذري أو جزئي، وهل هو ملائم، وهل هو دائم أو مؤقت؟

• ما مدى بساطة الحل، وما مدى إمكانية استيعاب الذين سيقومون بتطبيقه له؟

إدراك هذه المساحات ينمُّ دائمًا عن إحساس حقيقي بوجود مشكلات في حياة الناس. ومع أن طبيعة الابتلاء تجعل من وجود المشكلات جزءًا من طبيعة الحياة، إلا أن الناس لايدركون المشكلات عادة على نحو مباشر وإنما عبر نماذجهم العقلية وعتادهم المعرفي.

إن الحقيقة طبقات، بعضها فوق بعض. وكلما ارتقينا في معارفنا وملاحظاتنا استطعنا الوصول إلى الطبقات الأكثر عمقًا في حقائق الوجود. وكلما وصلنا إلى طبقة جديدة توسعت قاعدة الفهم لدينا ووجدنا عندها إشكالات جديدة تحفز على طرح أسئلة جديدة، وهكذا فالعقل ينسل الأسئلة في حالة تقدمه وارتقائه. ويكف عن التساؤل في حال جموده وعطالته.

أصحاب العقليات الناضجة يتخذون من الأسئلة عناصر اكتشاف للمجهول. وهم لا يتوقعون من وراء إثارتها الوصول إلى أجوبة شافية تقطع دابر الخلاف في المسائل الحضارية الكبرى، يؤملون من وراء التساؤل الحصول على أجوبة تفتح آفاقًا جديدة للبحث والحفر المعرفي، وتوفر أسسًا متينة للخلاف، وتبني معقوليات وأطرًا تتحرك داخلها أقوال الباحثين والمتحاورين والمنظِّرين للقضايا موضع التساؤل. إن طرح السؤال يشبه إلقاء حجر في ماء راكد، إنه يهدم ظاهرة الاتساق المصطنع في السياقات الفكرية والمعرفية من أجل الوصول إلى اتساق جديد أكثر كمالًا.

إذا تساءلنا: لماذا نجعل التساؤل جزءًا مهمًّا من تكوين العقلية الناضجة وجزءًا من طريقة عملها، ولماذا نجعله على هذه الدرجة من الخطورة، استطعنا أن نقول في الجواب: إنما فعلنا ذلك لأن الذين يطرحون الأسئلة الجادة والعميقة يدلِّلون على أنهم تخلصوا من أسر الموروث الشعبي الذي يجعل التساؤل أمارة على الجهل وقلة الدراية، كما يدلِّلون على أنهم استطاعوا من خلال الأسئلة كسر جدار العجز والإحباط الذي تعاني منه الأمة، والذي يعد عدوًّا لدودًا للتفاعل والانفتاح الذي ينتجه التساؤل. إن المتسائل يبرهن على أنه يملك خاصية (الدهشة) والتي تعد مفتاحًا من أعظم مفاتيح البحث العلمي.

ومن وجه آخر فإننا إذا تأملنا في أحوال الذين لا يتساءلون وجدنا أن المركَّب العقلي لدى كثير منهم واقع في أسر نمط من أنماط الخرافة؛ حيث إن الشعوب التي تستمتع بسماع عجائب الأخبار وغرائب الوقائع تنمحي لديها الفوارق بين الممكن والمستحيل والعادي وغير العادي. ليصبح كل شيء ممكنًا وواردًا وعاديًّا! والذين يتساءلون يبرهنون على أنهم يملكون المحاكمة الأصيلة والمنطقية التي تساعدهم على التحرر من الخرافة، كما تساعدهم على رؤية الأشياء على ما هي عليه.

وأخيرًا فإن أصحاب العقليات الناضجة يتساءلون؛ لأنهم يملكون مفاهيم أكثر امتدادًا وعمقًا من المفاهيم السائدة في

٣ - تجديد النماذج:

لكل أمة مبادئها ومنطلقاتها التي تشكِّل قوام وجودها المعنوي. ولها كذلك أهدافها التي تسعى إلى تحقيقها. وهي حتى تتحرك صوب أهدافها في هدي مبادئها بحاجة إلى أن تفتح حقولًا للفعل والممارسة على أساس صيغ محدودة. هذه الصيغ يمكن تسميتها (بالنماذج). وعلى مقدار انتشار النماذج واتساع استخدامها ودرجة إتقانها يكون النضج العقلي والمفاهيمي للأمة. العقول الناضجة لا تصنع النماذج فحسب، وإنما تعمل هي نفسها وفق نماذج استطاعت صياغتها وبلورتها من أجل تسهيل عمليات الإدراك والنقد والتعامل مع الأشياء.

إن كل نموذج نقوم ببنائه يكون في العادة ملائمًا للظروف التي نمر بها، كما يكون ملائمًا للموارد المتاحة لنا، وقادرًا على تقديم الخدمة التي نرجوها من ورائه. لكن بما أن كل ما لدينا وما حولنا يتغير، فإن النماذج التي بنيناها من قبل تصاب بالتقادم، وتفقد الكثير من فعاليتها وملاءمتها، لكن معظم الناس لا يملكون الشفافية للإحساس بذلك التقادم مما يجعلهم يتمسكون بها، ويصرُّون عليها، فتتحول بين أيديهم من أدوات نمو وإنجاز إلى أدوات تخلف وانغلاق على الذات. وهكذا فإن هناك أشخاصًا كثيرين يحلمون بعودة أطر الوحدة التي جمعت شمل الأمة في يوم من الأيام. كما

أن هناك أشخاصًا كثيرين يصرون على المحافظة على الأساليب التربوية والتعليمية القديمة، ويرون أنها خرَّجت علماء كبارًا وأجيالًا فذة. ونظرًا إلى أن ذلك قد يكون غير ممكن ولا مُجْدٍ فإن تلك النماذج تتحول إلى شعارات تُردَّد وأمانٍ تدغدغ العواطف ليس أكثر!

العقليات الناضجة وحدها هي التي تقوم باستخلاص أفضل ما في النماذج القديمة من أجل سكبها في نماذج جديدة، تتجسد فيها المبادئ العليا، وتكون قادرة على تحقيق غاياتها من خلال تمتعها بالانسجام مع المعطيات المعاصرة. إن أصحاب العقول الناضجة يدركون الفرق بين الثابت والمتغير، وبين اللباب والقشور، كما يدركون الفرق بين الغايات والوسائل؛ ولذلك فإنهم يستطيعون نقد النماذج القديمة وسك نماذج جديدة. وهم من خلال هذا وذاك لا يطورون الحياة فحسب وإنما يطورون بنياتهم العقلية أيضًا.

٤ - التساؤل:

يشكل التساؤل جزءًا حيويًّا من نظم التفكير لدى العقلية الناضجة. وطبيعة السؤال المطروح ومستواه يعبران على نحو دقيق للغاية عن المستوى العقلي والمعرفي لصاحبه. نحن عادة لا نتساءل إلا إذا أبصرنا المساحة الفاصلة بين ما هو كائن وبين ما ينبغي أن يكون. والمساحة الفاصلة بين الطبيعي وغير الطبيعي والمنطقي وغير المنطقي.

المجتمع. وذلك دليل الريادة الفكرية والتقدم المعرفي.

أما المفاهيم التي تتخذ العقلية الناضجة منها أساسًا لفهم الوجود والتعامل مع مفرداته، والتي رأينا أنها تشكل ما يشبه المضمون فهي في الواقع أكثر من أن تحصى. وسأقتصر هنا على إيراد خمسة منها على نحو شديد الإيجاز بغية توضيح الفكرة ليس أكثر:

أولًا: الثقافة خبز الدماغ:

العقل من غير معارف فراغ وهباء. وفي زماننا هذا تعاظمَ القدرُ المنظَّم من المعرفة إلى حدود لم يكن لأفضل العقول في الماضي أن يتخيلها. ومع هذا التعاظم يزداد اعتماد العقل في عمله على ما يمده به المحيط الخارجي من معارف وخبرات وتجارب. وعلى هذا فإن ثروة العقل لم تعد تستمد من إمكاناته الذاتية، ولا من ممارساته الداخلية، وإنما من خلال الاطلاع الجيد على المعارف المتراكمة ومن خلال الملاحظة والحوار والثقافة والتعلم المتفوق.

إن الدماغ الخالي من القدر الملائم من المعارف يطرح طروحًا شكلية، لا تؤازرها المعطيات الملموسة، كما أن الخيال لديه يكون محدودًا. ولذا فإن نتاج حركته كثيرًا ما يكون هزيلًا. إن النضج العقلي بات مرهونًا بالتثقف، والتثقف مرتهن للإحساس الصادق بالحاجة للعلم. وإن الثراء المعرفي يبدأ بالتكون لدى الإنسان من خلال التوتر المستمر

بين ما يعرف وما يجهل. الثقافة خبز الدماغ ولا يغنيه عنها أي شيء آخر.

ثانيًا: الرضا بموضوعية منقوصة:

المسلم مأمور بمقاومة أهواء الذات وتهويمات الظنون والأوهام، كما أنه مأمور بعدم الانصياع للضغوط الخارجية عند إصدار الأحكام وسك المفاهيم والمقولات. وهذا يؤمِّن - ولا شك - قدرًا جيدًا من الموضوعية. لكن مع هذا علينا أن نعتقد أننا في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية عامة لا نستطيع أن نفصل دائمًا بين الذات والموضوع، كما أننا لا نستطيع أن نتطابق في أحكامنا وتعبيراتنا مع الموضوع تطابقًا تامًا؛ حيث يدرك العقل القضايا التي يعالجها إدراكًا غير كامل. واللغة التي نستخدمها بوصفها أداة للفهم لا تسعفنا دائمًا، لأن سيطرتنا عليها تظل دائمًا ناقصة. كما أن التعابير التي نستخدمها في نقل أفكارنا ليست بمثابة مرايا تعكس ما في عقولنا على نحو صادق وأمين؛ لأن اللغة أيضًا ناقل غير كفء.

أضف إلى كل هذا أن عقولنا لا تستوعب الأشياء على نحو مباشر، وإنما عبر إشكالية مكونة من مبادئنا وثقافتنا وخبراتنا؛ ولذا فإنه كثيرًا ما يحدث أن تتلون القضايا والموضوعات أمام عقولنا بلون ثقافتنا ومسلَّماتنا كما تتلون الأشياء وفق لون النظارة التي نضعها على عيوننا. وهذا

يدعونا إلى أن ننظر إلى الحياد الكامل بأنه أحد أوهام الخاصة والعامة، كما يملي علينا أن نرضى بموضوعية نسبية ومنقوصة تجاه كل المسائل التي نقوم بمعالجتها والتعامل معها.

ثالثًا: فهم مجتزأ للواقع:

نحن محتاجون للاعتراف بعجزنا عن الفهم الكامل للواقع، وذلك يعود إلى أن الواقع يملك طبيعة زئبقية تتأبى على القبض والتشكيل. ومهما امتلكنا من معلومات، واستخدمنا من مناهج فإن أشياء كثيرة في الواقع تظل محجوبة ومتوارية عنا لأسباب عديدة. وعلينا أن نكسر حدة العبارات التي نستخدمها في التعبير عن مدركاتنا من خلال ترك هوامش للاحتمال والخطأ.

من المشاهد أن كثيرًا من الناس حين يريدون فهم واقع قضية من القضايا أو مشكلة من المشكلات يجدون أنفسهم عاجزين عن الإحاطة بكل أبعاد تلك القضية... وعوضًا عن الاعتراف بذلك فإنهم يلتقطون صورًا مختارة من ذلك الواقع، وهي بالتحديد الصور التي يمكنها أن تغذي خيالاتهم ومعتقداتهم التي امتلكوها مسبقًا حول تلك القضية أو المشكلة. وبهذا فإنهم لا يصوّرون لنا ما يجري في الواقع، ولكن ما يشتهون أن يمضي عليه ذلك الواقع.

إن أفضل شيء يمكن أن نفعله في فهم الواقع هو القيام باستقصاء منهجي له من خلال تحديد التعريفات

والمصطلحات وتقسيم الواقع إلى أصغر وحدات ممكنة ثم القيام بتحريات منظمة، وتسجيل المشاهدات وإجراء الإحصاءات التي تساعدنا على زيادة قدرات حواسنا الضعيفة والمحدودة. وبعد كل ذلك علينا أن نقول: إن التوصيف والتصور الذي توصلنا إليه ليس كاملًا، لكنه يروم الكمال ويسعى إليه.

رابعًا: نسبية العقلانية:

العقلاني والعقلانية من أكثر الكلمات انتشارًا اليوم. وبعض الذين لا يدركون أبعاد ما يقولون يصوِّرون (العقلانية) على أنها مرجعية شاملة وحاسمة يجب أن نحاكم إليها كل تصرفات الناس ومواقفهم. والواقع أنهم يحاكمون إليها كل ما لا يعجبهم من تصرفات الناس، أي إنهم يستخدمونها أداة قمع فكري! والذي أحب أن أوضحه هنا أنه ليس في إمكان العقل البشري أن ينجز للإنسانية (عقلانية واحدة) تشكل أرضية للتفاهم وللتعاون.

نعم إن جميع العقول تعمل بمنطق واحد وتعمل على مبادئ فطرية واحدة، لكن يظل في النهاية لكل ثقافة وحضارة وجماعة عقلانيتها الخاصة، وتلك العقلانية تتشكل على هدي عقائد المجتمع ومبادئه الكبرى وميراثه الثقافي ونظامه الرمزي. وليس العقل سوى أحد المساهمين في تشكيل العقلانية؛ بل إن الواقع الاجتماعي حين يتغير، فإن العقل كثيرًا ما يضطر إلى

إعادة ترتيب مفاهيمه ومعاييره الاجتماعية؛ لتتطابق مع ذلك الواقع، أو تكون قريبة منه.

ويذكرون على سبيل المثال أن المستعمرين البيض حين ذهبوا إلى أمريكا كانوا يعدون عري النساء هناك قمة التخلف والبدائية. وكانت النساء الغربيات في ذلك الوقت يرتدين ملابس تغطي معظم أجزاء البدن. وبعد أن تغيرت الثقافة الغربية صار الإنسان الغربي يعد نوادي العراة ظواهر حضارية تدل على التقدم ورحابة الأفق واتساع مدى الحرية الشخصية!

خامسًا: خدمة الحقيقة:

وهي قضية عقلية أخلاقية. والإنسان المسلم هو أولى الناس باحترام الحقيقة وخدمتها والدفاع عنها والعمل على نشرها؛ لأن ذلك يدخل في صلب الإيمان وفي صلب تكوين العقلية الإسلامية. وقد أقام علماؤنا الأقدمون علومًا كاملة من أجل التأكد أن الحديث المروي هو كلام النبي ﷺ مثل علم الجرح والتعديل وعلم الرجال وعلم قواعد التحديث، كما وضعوا علمًا مستقلًّا ومتقدمًا جدًّا، هو علم (أصول الفقه) من أجل بلورة قواعد لتفسير النصوص الإسلامية والاستنباط منها.

إن خدمة الحقيقة خدمة صعبة وشاقة وعلى مقدار ما هي راقية وسامية. وهي تحتاج إلى شفافية على مقدار ما تحتاجه من

وعي وصبر وإنصاف. وتتجلى خدمة الحقيقة في الاعتراف بالجهل، وهذا من جهته يمهد لنا الطريق للتعلم من غيرنا. كما تتجلى خدمة الحقيقة في الكف عن توليد الحجج والمعاذير لتغطية قصورنا وتقصيرنا. ويترتب على ذلك بشكل آلي تحسن وضع الاعتراف بالحقيقة، ووضع التعامل معها؛ حيث تذيع المصارحة والمكاشفة والنقد الذاتي والاجتماعي. وتقتضي خدمة الحقيقة في بعض الأحيان وضع النقاط على الحروف وتسمية الأشياء بأسمائها والكف عن خلط الأوراق والمفاهيم.

وعلى سبيل المثال فإن من مشكلاتنا الكبرى اختلاط مفهوم القدرة بمفهوم الإرادة؛ حيث إننا غالبًا نقول: نحن لا نقدر أن نفعل كذا وكذا، ونحن في الحقيقة نقدر على ذلك، ولكننا لا نريد أن نفعله. خدمة الحقيقة هي خدمة للمبدأ، كما أنها خدمة للذات وخدمة للحياة العامة.

* * *

إلى متى؟!

لست أدري متى سنبصر طريقنا إلى التخلص من أدوائنا القديمة التي حولتنا من أمة تقود الأمم إلى أمة تستجدي الشعوب في لقمة عيشها وفي أمنها وفي تنظيم شؤونها؟ ولعل من أدوائنا القديمة الاستسلام لِلّحظة الراهنة، فنحن نستمتع ونهجع ونأكل ونلعب كلما أتيح لنا ذلك غير آبهين بما يأتي به الغد، ولا مكترثين بما يتطلبه ما بعد الغد!

إن القرآن الكريم حين أمرنا بإعداد العدَّة كان يستهدف إخراج المسلم من ضغوطات الساعة الحاضرة، لتنفتح له آفاق المستقبل. والتخطيط في حقيقة الأمر يعني الحصول على شيء من هذا؛ حيث إنه يساعدنا على توظيف إمكاناتنا الحاضرة في مشروعات تستهدف تحسين أوضاعنا في المستقبل. وهذا يستوجب ألا نهدأ حين يتاح لنا الهدوء، ولا نغفل في أيام الرخاء. وهذا ما تفعله الدول العظمى والأفراد المتفوِّقون.

قد أثبتت كل الأحداث التي وقعت في العقدين الماضيين أن أعداء هذه الأمة ومنافسيها يعتمدون في الكيد لها واستغلالها على عقدة النسيان لديها وعلى كون تحركاتها لا تنبثق من رؤيتها للمستقبل، وإنما من مواجهة مشكلاتها الآنية. ولذا فإننا أصبحنا ألعوبة في أيدي الآخرين؛ إذ ما عليهم

حتى يُنسونا ما نحن منهمكون فيه إلا أن يخترعوا لنا مشكلة جديدة، فننسى القديمة، وننطلق نحو معالجة الجديدة بالحماسة نفسها التي كنا نعالج بها المشكلة القديمة، وبذلك ننسى الذين ورَّطونا في المشكلة القديمة والذين ورَّطناهم أيضًا!

إن كثيرًا من مشكلاتنا الفردية والجماعية ناشئ من قصور في المفاهيم لدينا؛ فنحن كثيرًا ما نظن أن توفير أكبر عدد ممكن من الأفكار والرؤى والطروحات يكفي للإصلاح والتقدم. ومع أن مثل هذا شرط لا يستهان به، لكنه ليس الشرط الوحيد، فنحن إذا عمقنا النظر في تجاربنا، وفي تجارب الأمم من حولنا، وجدنا أن أكثر ما يرتقي بالأمم أمران:

النماذج والمؤسسات؛ فعقولنا تميل إلى عدم تصديق ما يطرح من أفكار نهضوية وعدم الاهتمام به والتفاعل معه ما لم نره مجسَّدًا في نموذج بشري، فينتقل ما كان يُنظر إليه على أنه مثالي جدًّا أو صعب التحقيق من حيز غير العملي إلى حيز الممكن الذي يقع ضمن المكنة والطاقة.

ولعل هذه هي الحكمة من وراء عصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وتجسيدهم لما يدعون إليه في سلوكهم. وهكذا المسلمون اليوم يحبون أن يروا نماذج راقية تتحرك على الأرض في كل اتجاه من اتجاهات الحياة: العلم والخلق والإدارة والسياسة والإنتاج والعلاقات الاجتماعية... وعلى مقدار ما يتوافر من نماذج راقية يندفع الناس في طرق الصلاح

والإصلاح، وإن لم يكونوا مفكرين أو مثقفين أو فقهاء...

أما المؤسسات فإنها تشكل أطرًا لتخريج النماذج، كما أنها تنسق الجهود المبعثرة، وتتيح لكثير من المشروعات أن يستمر فترات طويلة. وإن في شباب الأمة الكثير الكثير من الرغبة في الخير والعمل، ولكنهم لا يجدون المؤسسات التي ترسم الأهداف، وتمهد الطريق، وتوفر لهم التدريب، وتعينهم على أنفسهم. إذا أردنا لهذه الأمة أن تنهض فلنركز على إيجاد أكبر عدد ممكن من النماذج الرفيعة والمتفوقة، وأكبر عدد ممكن من المؤسسات ذات الاهتمامات الجزئية والمتخصصة، فبذلك وحده نتعلم العمل في أيام الرخاء لأيام الشدة، وبذلك تتحول العواطف النبيلة من كونها فورة مؤقتة إلى وقود لإنجاز الأعمال الجليلة.

* * *

الاستجابة للتقويم

حين نضع نظامًا للتعليم أو المرور أو العمل التطوعي... فإن ذلك النظام يكون ترجمة لرؤيتنا لعدد من الأمور، مثل الموارد والتكاليف والنتائج والأهداف المرجوة وموقف الناس منه ومدى استيعابهم له وتفاعلهم معه والأدوات المستخدمة والمشكلات المتوقعة... وبما أن كل ذلك يَدخل عليه نوع من التغيير والتعديل عند الدخول في ميدان التطبيق فإن رؤيتنا لكفاءة ذلك النظام ستتأثر في النهاية، وتصبح لدينا ملاحظات ومعطيات جديدة تحفزنا على تجديد ذلك النظام وإدخال بعض التعديلات عليه أو التخلص منه كليًا. هذه سنَّة من سنن اللَّه - تعالى - في الخلق، وهي عامة في كل نظام ولدى كل أمة.

إذا نظرنا في أحوال الدول اليوم وفي أحوال المؤسسات والمنظمات والشركات وجدنا أن القويَّ والناجح منها يتمتع بشفافية فائقة نحو النقد الموجَّه إليه، ونحو وضعية النظم التي يسير عليها، ونحو وضعية الأهداف التي يسعى إلى تحقيقها؛ ولذا فإنك تراها وهي في ذروة نجاحها وتألُّقها تخطط للمستقبل، وتقوم بعمليات مراجعة لأحوالها وأوضاعها العامة. ويدخل في هذا الإطار تغييرها للشعارات التي تضعها

على منتجاتها ولألوان أغلفتها، كما يدخل فيه إعادة تأثيث مكاتبها وتحديث أجهزتها وخطوط إنتاجها، ومع أن هذا قد يكلفها مئات الملايين إلا أنها تدفعه عن طيب نفس؛ لأنها تريد إشعار زبائنها وعملائها بقدرتها على التجديد والتطوير، لتلقي بعد ذلك في روعهم أن ذلك التجديد يستهدف الاستحواذ على رضاهم والتعبير عن الاهتمام بهم. والعقل المعاصر يستجيب لهذا المعنى على نحو مدهش!

في المقابل فإنك تجد الدول والمنظمات... الضعيفة والمتخلفة وقد خيَّم عليها التقادم في كل شيء: مكاتب يعلوها الغبار، وأثاث متهالك، وقوانين يشكو الناس منها منذ نصف قرن دون أن يفكر أحد في تغييرها، وإنتاجية في تراجع مستمر، وموظفون وعمال يبحثون عن بديل عن العمل فيها حتى ينجوا بأنفسهم من مشكلاتها. إنك حين تدخلها تشعر أنها أمام كيان هرم، يلفظ أنفاسه الأخيرة. الإنسان العادي يتأثر تأثرًا كبيرًا بهذا المشهد المحزن، فَيُعرض عن منتجات تلك المؤسسات... سواء أكانت فكرية أو مادية، لأن العقلية الحديثة تدمج بين الشكل والمضمون، وبين الأشياء وطريقة تقديمها، وبين الجوهري والهامشي، وذلك بسبب الدعايات الإعلانية الجبارة. وليس من الحكمة غض الطرف عن وضع كهذا.

وإليك بعض الملاحظات في هذا الشأن:

١ - لا يمكن أن تحدث استجابة جيدة للتقويم إلا إذا

توافرت الإرادة الصلبة للاعتراف بالحقيقة ولو أدَّى ذلك إلى توجيه لوم أو تفويت بعض المصالح. ولا أعتقد أن توطين هذه الميزة الحميدة في مجتمعاتنا بالأمر الهين، وإنما يحتاج إلى إرساء تقاليد وأعراف ثقافية، تمجد الاعتراف بالحقيقة وتسهِّل من ثمَّ على الناس تحمل المسؤولية عن الأخطاء التي يقعون فيها، كما كان عليه الشأن في صدر الإسلام.

٢ - لا بد أن نتعود النظر إلى النظم المعمول بها وإلى الخطط والمشروعات التي ننفذها من أفق النتائج التي حصلنا عليها من ورائها؛ فحين نضع خطة للحد من تسرب الطلاب من المدارس، ثم نجد بعد عشر سنوات من تنفيذها بأن نسبة التسرب زادت أو لم تنخفض، فإن علينا آنذاك ألا نتردد في الحكم على تلك الخطة بأنها غير ملائمة، وأن علينا القيام بتغييرها.

٣ - حين نشعر أن نظامًا ما لا يعمل كما نرغب ونتوقع، فيمكن أن نترك النظام على حاله، ونقوم بتغيير بعض الأمور المتصلة به قدر الإمكان، وعلى سبيل المثال إذا وجدنا أن الناس لا يلتزمون بربط حزام الأمان فإنه من الممكن إلزام مستوردي السيارات بالطلب من مصنعيها بتزويدها بأحزمة أمان تعمل آليًا بمجرد تشغيل السيارة على نحو ما هو متوافر في بعض السيارات اليوم. وإذا وجد أن السائقين يتجاوزون السرعة القصوى المقررة للسير، فيمكن حظر استيراد

السيارات التي تسير بسرعة عالية، وتتجاوز كثيرًا حدود السرعة المسموح بها في البلد. وهكذا...

٤ - إن كثيرًا من النظم والقوانين يستمر فترات طويلة مع رداءته وإخفاقه، لا لشيء إلا لأنه لا يُعرف على وجه التحديد لماذا وُضع، أي إنَّ الأهداف التي وضع من أجلها غير موجودة، لكنها غامضة أو مجملة؛ ومن ثمَّ فإن الناس لا يستطيعون اكتشاف درجة أداء تلك النظم والقوانين ومدى كفاءتها وصلاحيتها.

ومن هنا فإن مما يساعد على الاستجابة للتقويم أن تكون الأهداف واضحة ومفصَّلة حتى يمكن قياسها والتأكد بالتالي من معرفة ما أنجز منها. وعلى سبيل المثال فإنه حين توضع خطة لمكافحة التدخين فإنه ينبغي أن يكون واضحًا ما الذي تستهدفه تلك الخطة من خفض في نسبة المدخنين في خمس سنوات - مثلًا - وما تكاليف ذلك على المستوى الإنساني والمادي. وحين يتم ذلك على نحو مفصَّل فإن من السهل بعد خمس سنوات أن نتحدث عن نسبة نجاح تلك الخطة، ومن أفق ذلك يمكن أن نتحدث عن كفاءتها. فإذا استطعنا أن نضيف إلى ذلك النص على طريقة التخلص من القوانين والنظم التي يثبت إخفاقها فإننا نكون قد قمنا بعمل جليل.

إن أمة الإسلام تعاني من مشكلات ضخمة في كثير من

مجالات الحياة وما لم ترهف إحساسها لتناذرات الأخطار التي تحدق بها، فإن المستقبل سيكون قاتمًا؛ فنحن نعيش في عصر السرعة حيث يكون التباطؤ في الإصلاح وخيم العواقب، وفي بعض الأحيان مدمرًا وقاتلًا.

* * *

قراءة في وقائع مأساة

ليست قراءة التاريخ والوقوف على حقائقه بدقة بالأمر الهيِّن. وليس تحديد عوامل سقوط أمة أو حضارة شيئًا في متناول اليد؛ فالأمر في الحقيقة أشق بكثير مما نظن. ولا تأتي صعوبة هذا الأمر من مدى إمكانية التحقق من حدوث الوقائع التاريخية فحسب، ولكن من إمكانية قراءتها قراءة راشدة دقيقة؛ فالناس حين يقرؤون التاريخ لا يقرؤونه على نحو مباشر، وإنما من خلال (إشكالية) كوَّنوها لأنفسهم؛ ولذا فإن تفسير الحقائق يتوقف إلى حد بعيد على المعتقدات والمبادئ والخلفيات الثقافية للمفسرين. وهذا يعني أن علينا أن نرضى بموضوعية ناقصة ونتائج نسبية الصواب. ومشكلة التاريخ أنه يتأبى على الخضوع للتجربة؛ فنحن لا نستطيع أن نجزم هل لو أن أهل الأندلس لم يغرقوا في النعيم، أو لم ينقسموا على أنفسهم، أو لم يصيروا من الهجوم إلى الدفاع... هل كانت أعمار دولهم ستطول أكثر مما كانت عليه؟

وذلك لأن أسباب السقوط عديدة، ولا نعرف على وجه التحديد شكل النتائج إذا تخلف واحد منها.

وتدل شواهد الماضي والحاضر على أن قراءة التاريخ عقيمة بالنسبة إلى السواد الأعظم من الناس، حتى إن بعض

الكتاب المسلمين والغربيين يرون أن أخذ العبرة من أحداث التاريخ عبارة عن خرافة كبيرة. لكن هذا القول لا يخلو من المبالغة. والرؤية الإسلامية في هذا الشأن واضحة، فهناك فئة قليلة من الناس يتّعظون بوقائع التاريخ، ويأخذون منها العبرة، كما قال - جلَّ وعلا -: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١]. وأولو الألباب المعنيون هم أولئك الذين استطاعوا الطفو فوق أمواج الانحطاط والاحتفاظ بالرؤية المنهجية الصحيحة في وسط يمور باللاهثين خلف الشهوات والمصالح الضيقة.

إن الخيال الخصب ليغرينا بتعداد الكثير من الأسباب التي أدت إلى خروج المسلمين من الأندلس، لكن ذلك لا يتحصل منه كبير فائدة، كما لا تتحصل فائدة جيدة من قاعدة بلغت استثناءاتها الثلاثين أو الأربعين؛ ولذا فإن من الأولى الاقتصار على أهم ما يراه المرء من أسباب.

إن سقوط الأندلس يشكل مأساة كبرى، لأن سقوطها لم يكن سقوط دولة، وإنما سقوط حضارة كان يمكن لها أن تكون نقطة انطلاق لتمدين العالم في تلك الحقبة، كما أن سقوطها قلع شعبًا مسلمًا من جذوره وعرَّضه للضياع الكامل؛ ومن هنا تأتي فرادة النكبة التي حلت بالإسلام والمسلمين في الأندلس.

وقد رأيت هنا الاقتصار على ذكر خمسة أسباب جوهرية ساهمت في حصول ما حصل، أسوقها موجزة في السطور الآتية:

١ - إن التقدم العمراني المذهل الذي حدث في الأندلس يدل على أن المسلمين هناك كانوا يمتلكون الكثير من المعارف والعلوم والخبرات المتقدمة بالنسبة إلى ما كان سائدًا في محيطهم - على الأقل - وهذا ليس موضع جدال.

لكن هل كل تقدم عمراني يعد تمدُّنًا وتحضُّرًا، وهل من اللائق أن نقتصر على الدلالات المباشرة للإنجازات الحضارية، أم لا بدَّ من البحث عن دلالات أخرى قد تكون ذات شأن فيما نحن بصدده؟

إن القرآن الكريم يعلِّمنا أنه ما من أمة من الأمم السابقة هلكت بسبب قصور عمراني، وإنما بسبب الحيدة عن منهج الله - تعالى - واستدبار رسالات الأنبياء - عليهم السلام -. وبناء الأبنية الفخمة في الأندلس قد تجاوز حدود الخيال بسبب الأموال الهائلة التي أنفقت فيها، وكان ذلك مصادمًا للبنية العميقة للتدين الحق، ومخالفًا لكل الأدبيات التي تهوِّن من شأن الدنيا وترغِّب في الآخرة. ولنا أن نسأل عن أعداد الفقراء الذين تم اقتطاع تكاليف أشكال الرفاهية من قوتهم اليومي، ومن حصتهم من ناتج البلاد الأندلسية وخيراتها؟!

لا ريب أن أعدادًا ضخمة من الناس كانوا يشعرون بالظلم والجور، وهذا من عوامل تفكيك المجتمع وذهاب الريح، وتعجيل الهزيمة. أضف إلى كل هذا أن الرؤية الإسلامية للمنجزات العمرانية تلح دائمًا على السياق الذي تمت فيه والمقاصد التي دفعت إليها. ونستطيع أن نقرر هنا أن أكثر الأبنية والمشروعات العمرانية تمت في سياق التنافس في إثبات الذات والغلبة على النظراء وسياق التفاخر والتكاثر؛ فهي من ثمَّ شواهد تراجع حضاري أكثر منها أمارات نهوض وتقدم؛ فقصر الزهراء - مثلًا - والذي اشتغل فيه عشرة آلاف رجل وثلاثون ألف دابة، والتي كانت سواريه - كما زعموا - من المرمر والحجر الشفّاف، وكانت رؤوسها مرصعة باللؤلؤ والياقوت، هذا القصر منسوب إلى الزهراء حظية عبد الرحمن الناصر. إنه آية في الإتقان والجمال لكن لا صلة له بتدين أو رجولة أو إصلاح.

٢ - المال الذي تدفق على الأندلس من خلال غزوات الفاتحين الأولين، ومن خيراته الذاتية، جعل إمكانية غرق أعداد كبيرة من الناس في النعيم الواسع أمرًا ميسورًا. وذلك النعيم مزّق الوحدة الشعورية العميقة لأفراد المجتمع؛ حيث إن فخامة القصور والمباني وكثرتها أتاحت لكثير من أبناء النخبة والصفوة أن يشكلوا ثقافتهم الخاصة، وأن يصنعوا عالمهم الخاص الذي يعجُّ بالنساء والغلمان والخمور والمغنين،

وهناك لا يكون همّ إسلام ولا مستقبل ولا أندلس ولا أعداء!

وظلَّ السواد الأعظم من الناس بين متشوِّق إلى الحصول على مثل ذلك، وباحث عن ثغرة للدخول إلى ذلك العالم، وبين مهمَّش لا حول له ولا طول. وفي مثل هذه الوضعية يضيع الإحساس بشرف الانتماء للوطن وتضيع الحماسة المطلوبة لمناهضة أعدائه والدفاع عنه.

وتعلمنا تجارب الأمم وشواهد الأيام أن كل قضية يُعزل عنها السواد الأعظم من الناس هي قضية خاسرة، وأن كل حمل يتم خارج رحم الأمة هو كالحمل الكاذب. وآنذاك يسهل بيع الشعوب والمتاجرة بقضاياها ومصيرها من لدن حفنة من الخونة (والخيانة فنون) الذين لا يجدون أي رادع يحول بينهم وبين ما يشتهون.

وترينا بعض الوثائق أن الوزيرين أبا القاسم المليح ويوسف ابن كماشة كانا عميلين للأعداء، ومع ذلك فإنهما كانا يفاوضان عن المسلمين من قبل أبي عبد اللّه الصغير آخر ملوك الأندلس. وقد ذكروا أن أبا القاسم المليح خاطب الملكين الكاثوليكيين (إيرناندوري نافرا) بقوله: أقسم باللّه وبالشريعة أنني إذا استطعت أن أحمل غرناطة على كتفي لحملتها إلى أصحاب الجلالة؛ وهذا برغبتي وليقض اللّه عليَّ إذا كنت كاذبًا كما أتمنى أن ينتهي هذا الأمر (أي تسليم غرناطة للإسبان) على خير. وأرجو أن تكونوا على يقين

بأنني خادم شريف ومخلص لأصحاب الجلالة!!

٣ - مما ذهب بريح الأندلسيين أنهم خربوا بأيديهم الأرضية المشتركة التي كانت تمكنهم من تجاوز الانقسامات العنصرية والقبلية. وإن بقاء شوكة المسلمين في الأندلس كان متوقفًا على اتخاذ الإسلام والالتزام بمبادئه وقيمه قاسمًا مشتركًا أعظم بين عناصرهم وقبائلهم المختلفة، وقد كان ذلك في بدايات وجودهم هناك؛ حيث كان القائد البربري أو العربي يقود جيشًا جرارًا خليطًا من البربر والعرب، وكانت مظلة الإسلام تتسع للجميع، وتغنيهم بالتالي عن الاحتماء بالتنوعات العرقية.

لكن لما ضعف الشعور بالوحدة الإسلامية ثارت النعرات العنصرية والقبلية (كما حدث في الشرق تمامًا) إلى حد يثير الاشمئزاز، وقد بلغ الانقسام حدًّا دفع بعض ملوك وأمراء المسلمين أن يعقدوا مع النصارى أحلافًا ومعاهدات ضد إخوانهم المسلمين؛ بل بلغ الانقسام إلى درجة إرسال الكتائب لمساعدة الإسبان ضد بعض الإمارات الإسلامية، على نحو ما حدث في سرقسطة في عهد ابن هود وما فعله أبو زيد ملك بلنسية وابن الأحمر في غرناطة...

بل إن النزاع بين المسلمين أخذ في بعض الأحيان شكل التصفيات الشاملة، وعلى سبيل المثال؛ فقد ولي محمد ابن هشام أمر قرطبة عام (٣٩٩هـ) وقد رحَّب به أهل

قرطبة، وأقاموا الولائم احتفاءً بولايته؛ وقد كان الرجل يبغض البربر بغضًا شديدًا، فأمر أن ينادى في الناس: من أتى برأس بربري فله كذا؛ فتسارع أهل قرطبة في قتل من قدروا عليه، ولم يبق تاجر ولا جندي إلا اجتهد في القتل والنهب. وقد نُهبت ديار البربر وهُتكت حريمهم، وسبيت نساؤهم وبيعت في السوق، وبُقرت بطون بعض الحوامل!!!

مع هذا السلوك الإجرامي ومع هذه الروح العنصرية لا يبقى أي شيء مقدس، كما لا يمكن للوحدة السياسية إلا أن تكون في مهب الريح، وهذا ما حدث؛ فقد تحللت الدولة الأموية هناك إلى اثنتين وعشرين دولة، يحارب في كثير من الأحيان بعضها بعضًا (هل هذا هو عدد دول الجامعة العربية؟!) ويبحث كل منها عن مصالحه الخاصة والنجاة بنفسه.

وهكذا يثبت التاريخ المرة تلو المرة أن العصبيات العنصرية والأنانيات الصارخة كانت تشكل دائمًا معول هدم في جسد الإمبراطورية الإسلامية في المغرب كما في المشرق على حد سواء.

٤ - كان الوعي الأندلسي مرتبكًا؛ فهناك ما لا يحصى من الشواهد على أن التقدم العمراني والرخاء في العيش في الأندلس كان يلازمه على نحو شبه مستمر انخفاض في مستوى التدين والالتزام؛ وحتى لا نجور على القوم فإن

الأندلسيين لم يكونوا استثناء من القاعدة؛ فتاريخ الأديان في العالم كله ناطق - مع الأسف - بهذه الحقيقة. أصيب الأندلسيون بمرض (الانهيار البطيء) حيث كانت صورة التدين لديهم تبتعد رويدًا رويدًا عن جوهر التدين الحق، وصارت البيئة العامة أشبه بحبل غليظ جُمعت خيوطه بعضُها إلى بعض خيطًا وراء خيط إلى أن استحال قطعه، وصار أهل الإصلاح والصلاح والغيرة يشعرون باتساع الخرق عليهم. وقد حاول بعض كبار علمائهم مثل المنذر بن سعيد وابن حزم وابن عبد البر وأبي الوليد الباجي، إيقاف التدهور، ورد طبقة الصفوة إلى سبيل الرشاد، لكن الأمر كان أكبر منهم.

إن مشكلة المترفين أنهم كلما حصلوا على درجة من درجات الترف شعروا أنها حق مكتسب لهم، وعدوا التنازل عنها نوعًا من الفقر والعوز، وهكذا كان الأندلسيون عاجزين عن أن يخطوا خطوة واحدة إلى الوراء، مع أن العدو يتحين الفرص للانقضاض عليهم فأدركتهم أيام اللَّه؛ قد انتشرت بينهم الذنوب والمعاصي، وصارت المبادئ السامية عبارة عن شعارات فارغة لا توجّه السلوك؛ بل تُتخذ للتزيين والتكميل الشكلي؛ وقد كان ابن حزم يقسم بأن ملوك الطوائف لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشيةً لأمورهم لعبدوها! وانعدمت الغيرة الدينية لدى كثير من العامة، فصار إنكار المنكرات من الأمور المنسية، وقد ذكر بعض المؤرخين أن

رجلًا نصرانيًا وقف في شارع عام في قرطبة أيام ابن عبد الجبار، وشتم النبي ﷺ بألفاظ نابية، فلم يكلمه أحد من المسلمين بكلمة!

وقد تحركت غيرة أحد المسلمين، فقال مستنهضًا لمن حوله: ألا تنكرون ما تسمعون؟ أما أنتم مسلمون؟ فقال جماعة منهم: امض لشغلك!

وانتشرت في العديد من المدن الأندلسية أشياء تخدش صفاء العقيدة، فقد كانت قرطاجة - كما وصف بعض المؤرخين - مملوءة بأقواس من الحجارة المزخرفة بالصور والتماثيل وأشكال الناس وصور الحيوانات، مما يدهش الأبصار.

إن كل شكل من أشكال المعصية موصول على مستوى ما بشكل من أشكال الهزيمة والانكسار، وهذا ما لم يكن واضحًا لدى القوم!

٥ - إن مصير المسلمين في الأندلس كان مرتبطًا بالخطة التي ينتهجونها في التعامل مع أعدائهم، وفي وضع كوضعهم كان الخيار الصحيح بالنسبة إليهم هو الاستمرار في الجهاد حتى يوجهوا فائض القوة نحو الخارج، وحتى يحافظوا على وحدتهم الداخلية؛ بالإضافة إلى أن ذلك يمكنهم من فتح خطوط متقدمة في أرض أعدائهم حتى يتمكنوا من الحفاظ على أرضهم (كما فعل اليهود) وقد كان بإمكانهم فعل ذلك، وربع الأموال التي أنفقت

على أشكال الترف والسرف كان كافيًا لتزويد الحركة الجهادية بما تحتاجه من نفقات، لكن القوم ارتضوا لأنفسهم الخطة الدفاعية في مواجهة عدوٍّ له عمق إستراتيجي ضخم هو أوروبا كلها. وليت القوم أحسنوا الدفاع إذن لخرجوا بشيء ما، لكنهم كانوا طوائف وشيعًا فلم يستطيعوا الوقوف صفًّا واحدًا، وقد كان حسم المواقف وتحديد الوجهة هو أهم ما ينقصهم؛ كما هو شأن كل المخذولين.

إن المسلمين بإعراضهم عن الجهاد وإدامة الهجوم وضعوا أنفسهم في وضعية المدافع المحاصَر، وقد قالت العرب قديمًا: المحاصَر لا يأتي بخير.

وعلى كل حال فدولهم الكثيرة التي كانت تتطاحن في مساحة محدودة من الأرض لم تكن مهيأة لأكثر مما فعلت؛ فقد كان بين معظمها وبين الحكم بما أنزل اللَّه - تعالى - فجوة كبيرة، وهي كما وصفها ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: « نظم مستبدة مستهينة بالدماء مكثرة من أسباب الترف وضروب العمران واستجلاب المنافقين من الكتاب والوزراء والشعراء، وقد نشأ بينها من المفاسد ما أعوز دفعه، واستحكم ضرره ».

كلما قرأت في تاريخ الأندلس السليبة تذكرت صراعنا مع اليهود، وأبصرت من أسباب الهزيمة هنا ما أبصرته هناك!

وللَّه الأمر من قبل ومن بعد.

* * *

رمضان وفتح الأقواس

البعد الأساسي للعبادات في الإسلام هو بعد روحي؛ حيث توفر العبادة جو الصلة بالله - جلَّ وعلا - والإخبات له وإعلان العبودية والاعتراف بالتضاؤل والتذلل أمامه؛ لكن بتنا اليوم نلمس بعدًا فكريًا لا يقل في أهميته ورمزياته عن البعد الروحي؛ حيث تجتاح البشرية موجات من الأفكار والنظريات والإيحاءات والمقولات التي تؤسس للإلحاد، وتدفع بالبشرية نحو المجهول.

رمضان يأتي هذا العام ليفتح قوسًا بل أقواسًا في حياة أمة الإسلام كي لا تمضي مع الأمم الأخرى في الطريق المهلكة ذاتها وكي تتمكن من تقديم نماذج واستثناءات تهتدي بها البشرية في ليلها البهيم.

ولعلي أتناول أهم ما أجده من ذلك عبر الحروف الصغيرة الآتية:

١ - إن ثورة الاتصالات التي يشهدها العالم اليوم قد خلطت كل الفضاءات وأزالت كل الفروق بين ما كان يعد داخلًا وما كان يعد خارجًا. وبما أن الحضارة الغربية التي تنشر مفاهيمها ومعاييرها في كل مكان من العالم هي أول حضارة ملحدة في التاريخ، فقد صارت البشرية تشعر على

نحو غير مسبوق بأنها من غير أهداف كبرى ولا غايات نهائية، تبرمج الحياة في ظلها، وتتجه المساعي إلى تحقيقها. ومن خلال ضغوط الحياة المتعاظمة، والتعقيد المتزايد لشروط العيش الكريم صارت حياة الناس عبارة عن حركة دائبة ومتسارعة من أجل قضاء الحاجات تارة، ومن أجل تلبية الرغبات الجامحة تارة أخرى، ولم يجد الناس إلا القليل من الوقت للتساؤل: فيم ولم كل هذا العناء؟ وما الهدف الأسمى الذي يجب أن نحققه في نهاية المطاف؟

هنا يأتي رمضان ليغير البرنامج اليومي للمسلمين على نحو جذري؛ حيث تختلف مواعيد العمل ويمتنع المسلمون عن الطعام طيلة النهار، ويتدفقون على المساجد للصلاة والقيام والتهجد وقراءة القرآن... شهر كامل يتم فيه الإعلان عن قدرة المسلم على التحرر من ربقة الشهوات وقدرته على تقديم شيء مختلف عما يتم الترويج له في ظل العولمة ومرحلة (ما بعد الحداثة).

٢ - في خطاب (ما بعد الحداثة) تسقط الثوابت والمطلقات الدينية وغير الدينية، حتى يصل الناس في نهاية المطاف إلى عالم سائل لا نسق فيه ولا مرجعيات ولا معايير، عالم خال من المقدسات والغيبيات والاعتبارات الروحية، حتى يهيم الناس على وجوههم في الأرض كالسوائم من غير احترام شيء أو التقيد بأي شيء. وحتى يكون الإنسان حديثًا

ومعاصرًا فإن عليه أن يكون متكيفًا حركيًّا مرنًا واقعيًّا، لا يتسم بالصلابة في هويته ومعتقداته؛ بل يمكنه أن يغير قيمه ويُعيد بناء شخصيته بسرعة حتى يواكب التطور ويحاكي آخر صيحات (الموضة)...

ويأتي الصائم ليتجاوز كل ذلك بحركة واحدة وموقف واحد، إنه يكيف يومه وليله ليس مع متطلبات السوق ولا مع مدلولات الدعاية والإعلان، وإنما مع عقيدته ومعرفته بالواجب والمحرم، وما يجوز، وما لا يجوز. وهو يلتزم بذلك على نحو حرفي، فيمتنع عن الطعام في وقت يُحسب بالدقيقة، ويصون لسانه عن كل ما هو قبيح، ويراقب كل تصرفاته بدقة متناهية حتى لا ينتقص من أجر صيامه...

إنه باختصار يفعل كل ما من شأنه معاكسة التسيب والتفلت القيمي والسلوكي الذي يروج له فكر (ما بعد الحداثة). وبذلك يشكل رمضان فرصة لشحن ثقافة المسلم بروح الثبات والإصرار على الاستمرار في طريق التدين الحق إلى آخر لحظة في هذه الحياة.

٣ – في عصر العولمة يتم التركيز على نحو غير مسبوق على إضعاف إرادة الإنسان من خلال فتح شهيته على الاستهلاك العظيم، حتى يقاد الناس إلى حتفهم من خلال رغباتهم، وقد حققت العولمة في هذا الشأن نجاحًا كبيرًا حتى إن الناس في كل أنحاء الأرض صاروا يستهلكون من أجل

مزيد من الإنتاج، وقد كانوا على مدار التاريخ ينتجون ما يحتاجون إلى استهلاكه.

ورمضان يفتح قوسًا في هذه المسيرة من خلال تقوية إرادة الإنسان إلى درجة إعلان التمرد على نداءات الغريزة: غريزة الطعام والشراب وغريزة الجنس... في رمضان يلمس المسلم أنه يملك روح المبادرة، كما يملك العزيمة على المقاومة، وهو إلى جانب هذا وذاك يغتني بمشاعر الشفقة والرحمة والبر والإحسان فترى المجتمع المسلم يمور بألوان العطاء وأشكال الكرم والبذل، وكأن الصيام فتح أبوابًا مغلقة وأزال حواجز عاتية كانت تفصل المسلم عن أخيه المسلم. فإذا بالوحدة الشعورية تعود من جديد لتظلل الحياة الاجتماعية في كل مستوياتها.

وإن من المؤسف أن بعض المسلمين لم يدركوا أن اختصار وجبة من وجبات يومهم يشكل حافزًا إلى صرف قيمتها لمن لا يجدها لا في رمضان ولا في غير رمضان فأخذوا يتوسعون في المآكل والمشارب إلى درجة أن استهلاكهم للأطعمة في رمضان يتضاعف عما يكون عليه في غيره!!

٤ - في رمضان تهب نسائم التوحيد ونفحات العبادة، فترى الصائمين ما بين مصلٍّ وقارئٍ للقرآن وساعٍ في الخير والبر ومقبل على تعلم أحكام الصيام وسامع لنصيحة أو موعظة... إنهم في كل ذلك يحققون معاني إنسانيتهم من

خلال الاعتراف للَّه - جلَّ وعلا - بالربوبية وحق الطاعة والمحبة. وحين أعلنت شعوب وأمم أنها صارت سادة الأرض دون أي إحساس بالخالق - جلَّ وعلا - فقدت في اللحظة نفسها إحساسها بإنسانيتها، وبشريتها، وأخذت مسيرة المدنية تفلت من القبضة وتستعصي على التوجيه والترشيد وصار الوعي البشري يشعر باليتم إذ فقد مظلة الإيمان والأمان.

في رمضان يستعيد المسلمون ما تهمشه الحضارة الحديثة في وعيهم وحسهم واهتمامهم من الإيمان بالغيب والتأمل في المصير والتفكر في طبيعة مسيرة الحياة.

٥ - يشكل رمضان فرصة مهمة للتربية الذاتية؛ حيث تتم الإجابة جزئيًّا عن إشكالية: « من يربي المربي » إذ إن إصلاح الأجيال وتنشئتها التنشئة القويمة يحتاج إلى صلاح المربين؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه. وها هم المسلمون في رمضان يعيدون تربية أنفسهم، ويحبسون أنفاسهم من أجل تناغم سلوكهم مع معتقداتهم، إنهم يخبرون الكثير من معاني الصلاح والإصلاح من خلال كبح جماح النفوس عن نيل الرغبات والملذات، وصار الصيام عبارة عن دورة تربوية سنوية لتنمية الوازع الداخلي والانضباط الشخصي وهما عماد الاستقامة، وأفضل ما يمكن الحصول عليه من وراء تربية ناجحة.

* * *

مجاوزة الواقع

هذا العيب يشكل ما يشبه العاهة الدائمة والمتلازمة لاستخدامنا لعقولنا في الكشف عن الحقائق وحل المعضلات. إن العقل كي يعمل بطريقة جيدة في التعامل مع الأمور المادية، يحتاج إلى قدر كافٍ من المعلومات، ولكن شواهد الأحوال، تدل على أننا في الغالب لا نجد المعلومات التي تحتاجها عقولنا في بحث كثير من القضايا، ولا سيما القضايا والظواهر الكبرى، مثل التخلف والتراجع الحضاري والتلوث والفقر ومخلفات الحروب، وما شاكل ذلك...

وبما أننا لا نستطيع أن نقف مكتوفي الأيدي دون أن نبحث ونقوِّم، ونُصدر الأحكام، فإننا نقوم بفعل ذلك اتكاء على ما لدينا من معلومات قليلة، وعلى ما لدينا من تصورات ومفاهيم عامة. وأذكر في هذا الصدد المؤتمر الوهمي الذي تصور عبد الرحمن الكواكبي انعقاده في مكة المكرمة، وأصدر حول طروحاته ومداولاته كتابه « أم القرى » حيث تخيل اجتماع وفود تمثل معظم أقطار العالم الإسلامي هادفين إلى تحديد طبيعة الأدواء والعلل التي يعاني منها المسلمون في الأرض ووصف الأدوية الناجعة لعلاجها. وقد قام كل وفد من الوفود بعرض رؤيته بشأن الداء والدواء.

والملاحظ على كل تلك الطروحات التي تخيلها الكواكبي أنها تبلورت بناء على انطباعات عامة، وليس على معلومات وأرقام محددة. وهذا ما نفعله في غالب الأحيان. لا يعني هذا بالطبع انعدام وجود وظيفة حقيقية للنظر والتأمل المجرد؛ فللتفكير التجريدي دوره الأساسي في اكتشاف جميع الحقائق والقوانين الرياضية، وكذلك في تقدير ما قد يكون حدث في الماضي من وقائع والإيحاء بإمكانات واحتمالات جديدة، لكن ذلك يتم طرحه على أنه من الأمور الظنية غير المؤكدة؛ لكن التفكير البشري لا يستطيع أن يخطو خطوة واحدة واثقة في علم الاجتماع - مثلًا - دون أن تجمع له المعلومات الملائمة حول أمور مثل وضعية التواصل الاجتماعي في بيئة ما، ودور الثقافة الشعبية في استمرار المجتمع، والعوامل المؤثرة في تطوره، وما شابه ذلك... كما أنه لا يستطيع أن يحرز أي تقدم في علم الاقتصاد دون البحث في مسائل مثل وضعية نمو قطاع الخدمات وإنتاج السلع وتوزيعها والندرة والتضخم والبطالة... وهكذا باقي العلوم.

الروح المعادية للعلم، هي التي تدفع الناس إلى تصور المسائل والمشكلات ذهنيًا، والتعامل معها وحلّها أيضًا ذهنيًا. وإن على كل واحد منا - أيًا كان عمله - أن يقاوم هذه الروح؛ لأنها تصيب التفكير القويم في مقتل من مقاتله،

وحين يصاب ذلك الفن بالعطب فلن نكون قادرين على فهم الواقع وتطويره نحو الأحسن.

يأتي من يقول لك: إن الأمراض النفسية تنتشر بين الناس بقوة في هذه الأيام، وإن الطبيب النفسي (سعيدًا) قد جنى الكثير من المال من وراء معالجته لمرضاه، وبناءً على هذا فقد قررت أن يتخصص ابني فلان في الطب النفسي، حتى يجلب لنفسه ولي الثراء. هذا التصور نظري مجرد، والحصول عليه سهل، وهو ما يلجأ إليه معظم الناس في معالجة كثير من القضايا، لكن حين ننظر فنجد في المدينة التي يعمل فيها الطبيب (خالد) خمسة من الأطباء النفسيين الذين لا يكادون يحصلون من وراء مهنتهم على رزقهم اليومي ندرك أن الأمور لا تحسب بهذه الطريقة، ولا بهذه البساطة؛ ولذا لا بد حتى نخمن مدى النجاح الذي يمكن أن يحرزه طبيب نفسي سوف يتخرج بعد أربع سنوات، من دراسة عدد من المعطيات، منها نسبة النمو السكاني، ونسبة ازدياد المشكلات النفسية في المنطقة، ودور الكفاءة العلمية والمهنية في نجاح الطبيب (خالد)، ودور أخلاقه وشخصيته وقدرته على إقناع المرضى بالوثوق به، إلى جانب موقع عيادته وخلفيته الأسرية، وما شابه ذلك.

وبما أن الحصول على هذه المعطيات ليس متاحًا على وجه كامل، وبما أن التعامل مع ما هو متاح منها سيكون

اجتهاديًّا، وبما أنه قد تجدُّ ظروف تغيُّر من وزن كل هذه المعطيات فإن حكمنا على مدى ما يمكن أن يحققه طبيب نفسي جديد من نجاح، لن يكون إلا ظنيًّا، ولكننا مع هذا نكون قد فعلنا ما في إمكاننا فعله.

من المهم حتى لا نقع في هذا الخطأ أن نحدد بدقة المجالات التي يمكن أن يعمل فيها العقل عن طريق النظر المجرد، والمجالات التي لا يستطيع التعامل معها إلا بواسطة المشاهدة والفحص والمعلومات والمعطيات التي تنير دربه، وتضيء القضية التي نريد علاجها.

* * *

قصور العقل

من أشد ما يهلك بني البشر على مدار التاريخ احتقارهم لأشياء كبيرة، وتعظيمهم لأمور صغيرة. وقد كان العقل البشري من جملة الأشياء التي أخطأت الحضارة الحديثة في تعاملها معها؛ حيث إن الغرب بعد أن نفض يديه من إصلاح النصرانية ومن جعلها مصدرًا يعتدُّ بها لتغطية عالم الغيب عمدت إلى (العقل) تستنجد به في توفير مظلة روحية ومادية لكل شؤون البشر واحتياجاتهم. واليوم ينسج على منوال الغرب في هذا العلمانيون الجدد الذين يشنُّون حملات منظمة ضد التدين والمتدينين، ويحاولون تفتيت مرجعية الوحي، واختزالها بطرق عديدة.

وأود هنا أن أوضح في مسألة قصور العقل النقاط الآتية:

١ - العقل البشري عقل محدود، وهو يوفر بيئة لنمو الدلالات والمفاهيم، كما أنه قادر على استخدام ما تنقله إليه الحواس في محاولته الوصول إلى بعض الأشياء المجهولة؛ لكن العقل غير قادر على الخوض في مسائل لا تتوافر له عنها معلومات جيدة؛ فهو لا يستطيع تحديد الغاية من الخلق؛ أي لماذا نحن هنا، كما لا يستطيع سن تشريعات تأخذ بعين الاعتبار مصالح جميع الناس وأوضاعهم دون أن يقع حيف

على بعض منهم. أضف إلى هذا أنه لا يستطيع أن يخبرنا عن الأمور المهمة في حياتنا والأمور التافهة؛ حيث ليس فيه أبواب ندخل منها إلى مداخل كل منها.

والعقل البشري بعد هذا وذاك بنية يسهل خداعها؛ فحين نزوده بمعلومات خاطئة فإنه يقع في الخطأ بسهولة، إنه عقل قادر على البحث في الأدوات والأشكال والأساليب وكل الأمور المحدودة، لكنه غير قادر على البحث في مصيره الذاتي. وهو على مقدار ما يبدي من البراعة في التعامل مع (الكم) يبدي القصور في التعامل مع (الكيف) أو ما يسمى (الصفات) وتجاهل كل هذه الأمور المحدِّدة لقدرة العقل على العمل يؤدي إلى حدوث أخطاء فاحشة تتعلق بمصير الإنسان على هذه الأرض.

٢ - العقل البشري ليس بنية مكتملة متميزة منحازة معزولة عن السياقات المعرفية أو عن المشكلات والقضايا التي يعالجها، أو يشتغل عليها، وإنما هو إمكانات ومفاهيم وبدهيات ملتبسة بالمعطيات المعرفية ومتفاعلة معها، كما أنها ملتبسة بالمشكلات الوجودية المختلفة، ومتفاعلة معها أيضًا. وهذا يعني أننا ونحن نحاور نؤثِّر ونتأثَّر، كما أننا حين نعلِّم نتعلم؛ كما أن عقولنا تتأثّر بالمعلومات التي تعالجها والمشكلات التي تسعى إلى حلها. وهذا كثيرًا ما يؤدي إلى اضطراب العقل وتراجعه عن كثير من مقولاته وطروحاته؛

ولهذا فإنه ليس هناك أي ضمان لاطراد تقدُّم أي مفكر في خط واحد مهما كان ألمعيًّا ومتمكنًا من الأفكار والمفاهيم التي يتبناها.

والأمثلة على هذا أكثر من أن تحصى، هذا (هوسرل) بعد أن كتب ألوف الصفحات في استجلاء علم (الظاهريات) محاولًا الوصول إلى البنى الموضوعية للماهيات المحضة تراه يتحول من رجل يبشر بمنهج جديد إلى واعظ يحذر أوروبا من المخاطر التي تنتظرها إذا هي استمرت في منهجيتها العلمية والفكرية؛ بل إنه يهاجم (العقل) ويتساءل في محاضرة له عام (١٩٣٥م): هل استقال العقل وفقد دوره في الحياة، أم أنه خلافًا لذلك كشف عن وجهه الحقيقي الانتهازي الماكر والنفعي...

هذا يعني أن تفويض كل شؤون الحياة للعقل وسدنته يشتمل على مخاطر كبرى، وليس هناك أي حل سوى العودة بالعقل إلى وظيفته الأصلية في الحركة ضمن أطر ومسلمات كبرى يؤمنها الوحي بما يصوغه من أصول ومبادئ، وبما يرسمه من خطوط عريضة لترشيد حركة الإنسان وعلاقاته.

٣ – العقل البشري أبدع حلولًا كثيرة لمشكلات الناس، وأسهم في توفير الراحة لهم، وفي تخليصهم من الكثير من أشكال العناء، وهذا موضع تقدير منا جميعًا، ولكن علينا أن نقول: إن إبداعات العقل أوجدت مشكلات كثيرة، مثل

تلوث البيئة ومخاطر الطاقة النووية وسيطرة الآلة على حياة الإنسان وفشو أمراض الحضارة... وعقولنا غير قادرة على إبداع الحلول للمشكلات التي أوجدتها، إنها تكشف دائمًا عن مساحات فاصلة بين وجود المشكلات والقدرة على حلها، وما ذلك إلا لأن منتجات العقول تدخل في تعقيدات وملابسات يعجز العقل عن فك رموزها والتحكم بها. وماذا يمكن للعقل أن يفعل لشخص أدمن الجلوس على (التلفاز) واستسلم لرغباته فأضاع الكثير من واجباته؟؟

وهذا يعني أن الاعتماد على العقل في تصحيح مسار البشرية بعيدًا عن القيم والمبادئ التي يوفرها الوحي مجافٍ للصواب وباعث على خيبة الأمل والخذلان.

٤ - أكثر الناس استخدامًا لعقولهم واستثمارًا لها هم الفلاسفة؛ حيث إن صياغة المفاهيم بواسطة العقل هي شغلهم الشاغل، ومع ذلك فإن كل المشتغلين بالفلسفة يعترفون أنه ليس من شأنها أن تمنحنا اليقين، أو تحدد لنا موطن الداء في قضية من القضايا، أو تصف لنا الدواء، أو تقدم لنا مفاتيح حلول لمشكلة من المشكلات، إنها نشاط فكري لا يتوقف عن إثارة الأسئلة، وإعادة صوغ المشكلات، إنها أشبه بمسلسل ليس له نهاية، وهي دائمًا في حركة مستمرة من إشكال إلى إشكال أعمق وأكثر تعقيدًا من سابقه.

ولست أقصد هنا إلى الإزراء على الفلسفة، وإنما أريد أن أقول: إن الناس بحاجة إلى اليقين وإلى أطر مهما تكن واسعة إلا أنها في النهاية محدَّدة وواضحة. وتلك الأطر تضع حدًّا لكثير من الأسئلة التي يطرحها العقل، كما ترشد إلى المسار الذي يمكن أن يسلكه في الإجابة عن الأسئلة المطروحة. وهذه الأطر لن يجدها الناس إلا في الدين الذي جعله اللَّه - جل وعلا - مستوعبًا لكل الخير الذي جاءت به الأديان السابقة.

٥ - العقل البشري عاجز عن التنبؤ الدقيق بما يمكن أن يقع في المستقبل؛ وقد حاول بعض مفكري أوروبا أن يستعينوا على معرفة ما يمكن أن يقع في المستقبل ببلورة رؤية شاملة للكون: بنيته وعناصره ونواميسه، على قاعدة: إذا أردت أن تعرف ما حدث في المستقبل فانظر إلى ما حدث في الماضي.

والحقيقة أنه لا يعرف الغيب إلا اللَّه - تعالى - وأن عقولنا تستطيع أن تتوقع حدوث أمور صغيرة في المستقبل القريب. أما توقع الأحداث الكبيرة في أزمنة متباعدة فهذا ما يكون غالبًا غير ذي جدوى، ويظل في دائرة الظن أو الوهم؛ وما ذلك إلا أننا عاجزون عن معرفة كل التغييرات التي ستقع في المستقبل، والتي ستؤثر في نوعية الأحداث والتحولات التي يمكن أن تقع.

أما قراءة التاريخ لاستخراج النواميس والسنن الكونية منه، فإن عقولنا تكشف عن قصور مدهش في هذا الجانب؛ والسبب في ذلك أن معرفتنا بالأسباب الحقيقية التي أدت إلى ولادة أحداث التاريخ الكبرى تظل دائمًا معرفة ناقصة. وحين نحاول حصر أسباب الأحداث الكبرى، ونوفَّق في ذلك، فإن المشكلة التي تنتظرنا تكمن في تحديد وزن كل سبب وحجم تأثيره في وقوع تلك الحوادث. لكن حين نتأمل سنن اللَّه - تعالى - في الخلق كما وردت في نصوص الكتاب والسنة، فإن دائرة خطئنا تضيق، ودرجة اليقين لدينا تكون أكبر.

٦ - لا يملك العقل البشري أي عتاد حقيقي، يمنعه من التورط في صناعة الخرافة وقبولها. ولست أبالغ إذا قلت: إن البنية العميقة لعقول الناس، هي بنية خرافية، حتى كأن الخرافة هي الأصل لديهم؛ إذ بمجرد حدوث ضعف في التثقيف الجيد أو وقوع الناس في حالات استثنائية من الشدة والكرب تطفو تلك البنية على السطح.

لو تساءلنا من أين تأتي قابلية عقولنا للسقوط في مستنقع الخرافة لوجدنا أننا تجاه حالة لا تخلو من الغموض؛ لكن يبدو لي أن مصدر ذلك يعود إلى أمرين جوهريين:

الأول: هو جهلنا بمعظم ما يقع في الوجود من أحداث، فإذا قلنا: إنه يقع على الكرة الأرضية في الدقيقة مئة مليون

حدث، فإن الواحد منا قد لا يشاهد منها سوى خمسة أو عشرة؛ والباقي يقع بعيدًا عن النظر، أضف إلى هذا أن خبرتنا بما حدث في الماضي أيضًا محدودة جدًّا؛ ولدى الناس إحساس بأن هناك عوالم لا تغطيها حواسنا، (ونحن المسلمين - مثلًا - نعتقد بوجود عالمي الجن والملائكة) فإذا ما حُدِّثنا عن حصول بعض الأمور الخارقة أو غير المألوفة، فإن عقولنا كثيرًا ما تتقبلها على أنها تنتمي إلى عالم من العوالم التي لا يراها الإنسان أو تتصل بالأحداث التي لم يشاهدها، وتكون تلك الأمور من الخيال أو من الكذب المحض.

الثاني: هو أن عقولنا تتقبل الأخبار التي نسمعها ما دامت تقع في دائرة المعقول، وترفضها إذا خرجت عن تلك الدائرة؛ فإذا ما قيل لنا: إن الناس في البلد الفلاني رأوا شخصًا يحمل عشرة قناطير على ظهره، فإننا نرفض ذلك، ونعده من قبيل الخرافة؛ لأنه يقع خارج دائرة المعقول بالنسبة إلينا؛ لكن المشكلة هنا أن الذي يرسم دوائر المعقول وغير المعقول - في غالب الأمر - ليس العقل، وإنما الثقافة والخبرة؛ فإذا ما قال لك شخص: أعطني ألف دينار لأتاجر لك به، وسيربح مئة ألف في آخر السنة؛ فإن القناعة بذلك وعدم القناعة به، لا تعودان إلى العقل وإنما إلى الخبرة والمعرفة بالتجارة وأحوال السوق في تلك السنة، فصاحب الخبرة ربما يقول لك: لا تصدق ذلك فأمهر التجار لا يستطيع اليوم مضاعفة رأس

ماله مرتين أو ثلاثًا في العام فضلًا عن أن يضاعفه مئة مرة؛ لكن يأتي شخص آخر عديم الخبرة، أو له خبرة مختلفة بأحوال السوق، فيقول: كلام ذلك الرجل معقول، وقد حدث مثل ذلك في العام الفلاني مع الشركة الفلانية، ولا مانع من أن يحدث الآن. وهكذا فمضاعفة رأس المال مئة مرة في السنة تعد من قبيل المعقول في خبرة شخص معين، وتعد من قبيل الخرافة والاحتيال في خبرة شخص آخر. ولهذا فطالما انقسمنا تجاه بعض الأخبار والأحداث إلى الفريقين: فريق يقول: هذا معقول، وفريق يقول: هذا غير معقول.

وهكذا فقد ظُلم العقل مرتين؛ مرة من قِبل المشعوذين والمخرفين الذين ألغوا دور العقل، ومرة من قبل الذين حُرموا نعمة الهداية بأنوار الوحي فألَّهوا العقل، وطلبوا منه أمورًا ليس من شأنه الاشتغال بها.

* * *

وقفة للتأمل

كان الإنسان في الماضي كثيرًا ما يعاني من الشعور بالضعف تجاه مظاهر الطبيعة من عواصف وسيول وحر لافح وبرد قارس وجفاف وحيوانات مفترسة... والآن قد أمكن التغلب على أكثر تلك التحديات، وصار الإنسان يجد نفسه في مواجهة مشكلة أخرى، هي: كيف يتصرف بهذه الإمكانات العلمية والتقنية الهائلة التي أصبحت تحت يديه، أو بعبارة أخرى: كيف يمتلك الحكمة في إدارة الحرية الواسعة التي باتت في حوزته؟

قد صار من مسؤولياتنا الكبرى أن نسعى إلى ترويض أنفسنا وأسرنا وطلابنا على استخدام المنتجات التقنية الحديثة فيما يعود علينا بالنفع، وأن نتعلم كيف نقاوم المغريات التي تتدفق علينا من كل مكان. إن كل منتجات الحضارة قابلة لأن تستخدم بطريقة ترقى بالإنسان، وتدفعه نحو الأمام، كما أنها قابلة لأن تستخدم على نحو يجلب له الانحطاط. الهاتف الجوال - مثلًا - يمكن أن يكون وسيلة جيدة لقضاء المصالح والتواصل مع الأهل والأرحام وتوفير جهد الانتقال... كما يمكن أن يستخدم وسيلة للثرثرة وتبادل النكات والطرف والتظاهر بالرقي وتنظيم الجرائم وقتل

الأوقات وهدر الأموال... وقل مثل ذلك في الأدوية والأسلحة والسيارات وشبكات المعلومات... ومهمة البيوت والمدارس أن تملِّك الناشئة الأخلاقيات التي تجعلهم يشعرون بالمسؤولية تجاه الإمكانات والمنتجات التقنية.

إن قدراتنا في ازدياد مطرد، وستقع مآسٍ كثيرة وانحرافات مفجعة إذا لم يصاحبها تحسُّن في الأخلاق وصلابة في الإرادة وزيادة في الوعي. وهذا كله لا يتوافر إلا عن طريق المزيد من التعلم الصحيح والمجاهدة المستمرة.

من المؤسف أن كثيرين منا لم يدركوا بعد أن بين معطيات العلم واتجاهات الحضارة مفارقات ليست بالقليلة، وأن تراكم المنتجات التقنية والخدمية والترفيهية لا يؤدي بالضرورة إلى تحسين نوعية الإنسان والارتقاء بالذات؛ بل إن كل الدلائل تشير إلى أن سلوك معظم الناس اليوم لا يتشكل على هدي العلم ومقتضيات الحكمة، وإنما على وقع الرغبات والشهوات وتأثير الدعاية التجارية الكاسحة. هذا - بالطبع - لا يقلل من دور العلم، لكن يحفزنا على تقديمه بطريقة معينة.

إن الحضارة الغربية لا تنتج اليوم الآلات والأدوات فحسب؛ ولكنها تنتج أيضًا الأفكار والمفاهيم وطرق العيش وأشكال العلاقات الاجتماعية. وإن من المؤسف أنها تكشف عن قدرات مذهلة في نشر العدمية والتشاؤم والقنوط وهدم النماذج والثوابت، حتى صار الإنسان في الغرب يشعر بأنه

محروم من اليقين ومن الاستناد إلى أي مرجعية تحميه من عواصف الشك ومتاهات الضياع!

إن الإنسان الحديث يتعرض لعملية مسخ وتشويه منتظمة حتى إنه صار أشبه بمخلوق عجيب، ينمو جسمه على نحو سريع، لكن ضميره وخلقه وإرادته وقدرته على التحكم برغباته في حالة من التجمد وأحيانًا في حالة من التقهقر والتراجع، فهو ليس إنسانًا مشوَّهًا فحسب، ولكنه يوشك أن يصبح إنسانًا خارج السيطرة، وبذلك تصبح تصرفاته من غير معنى ولا هدف؛ بل عبارة عن أحاسيس متفجرة، وتغدو خبراته وكأنها من غير شكل ولا لون!

إن وضع الناشئة لدينا خطير وحساس؛ حيث إنهم يتعرضون لهجمات ثقافية مدمرة، مما جعل كثيرًا منهم لا يبصر الطريق الصحيح، ولا يجد المربي الناصح ولا المرشد المشفق البصير بتربية النفوس والعقول. وهذه الوضعية الآخذة بالتفاقم تتطلب وقفة صلبة للمراجعة والتأمل في تحليل نوعية الاتجاهات والاهتمامات والمفاهيم التي تسيطر على الفتيان والشباب، ثم العمل على تطوير الخطاب التربوي والدعوي والإعلامي بما يجعله قادرًا على صنع ثقافة جديدة تعلي من شأن الالتزام والتضامن ومجاهدة النفس وتحمل المشاق؛ بالإضافة إلى إثراء الساحات الاجتماعية بالمفاتحة والمصارحة والحوار وتشخيص العلل والأدواء.

وفي اعتقادي أن هذا أمر لا يحتمل التأخير، وإذا لم نبادر، فقد نخسر جيلًا كاملًا، وحين يصبح هذا الجيل في مقام التوجيه والمسؤولية فإن الإصلاح قد يصبح من الأمور المستحيلة!

* * *

إدارة التناقض

وجود نوع من التناقض بين الأفراد داخل الأمة، وبين أمة وأمة، هو معقد من معاقد الابتلاء في هذه الحياة. وهو أيضًا مدخل كبير للتطور والتقدم الحضاري؛ فالوعي يتقدم من خلال اختلاف المستويات أكثر بكثير مما لو ساد الحياة التشابه والتماثل. والتناقض بعد هذا وذاك أداة كبرى للتميز؛ فمن غيره لا يشعر الأفراد، كما لا تشعر الأمم بالخصائص والميزات الفارقة بينها.

أمة الإسلام هي آخر الأمم، ورسالتها هي خاتمة الرسالات، ولهذا فنحن ورثة تراث الهداية في البشرية، وتاريخ البشرية هو تاريخ الرسل والرسالات والنبوة والأنبياء. وهذا يلقي علينا مسؤولية خاصة نحو العالم. **إنها مسؤولية الدعوة والهداية والإصلاح والإنقاذ. وحتى نستطيع القيام بهذه المهمة على الوجه الصحيح فإننا بحاجة إلى العديد من الأمور والتي من أهمها:**

١ - السعي المتواصل للمحافظة على الهُوية والتي تعني دائمًا وضوح الميزات التي تميّز أمة الإسلام عن غيرها من الأمم على مستوى العقائد والأحكام والآداب. وهذا سيكون قليل النفع إذا ظل وضوحه على مستوى الكلام. وإنما يجب

أن يتجسد في حياة أكبر شريحة ممكنة من المسلمين. وهذا ما يؤمِّنه الالتزام الدقيق.

٢ - ينبغي أن يهيمن على علاقاتنا بغير المسلمين الإحساس بواجب التبليغ، فأمتنا صاحبة حاجة لدى الأمم الأخرى، وهذه الحاجة تتمثل في حرصها على أن تصل دعوة الإسلام - إذا أمكن - إلى كل شخص في العالم. فأهل عصرنا يعيشون أزمات صامتة خانقة، والإسلام هو المنقذ الوحيد لهم من تلك الأزمات.

٣ - التناقض بين الأمم كثيرًا ما يفرض أشكالًا من العداء والصراع. وهناك شواهد كثيرة قديمة ومعاصرة على أن الصراع حين يقوم كثيرًا ما يكون قيامه على أسس من الخلاف العقدي أو العنصري أو التاريخي... لكنه في الغالب يتحول بعد مدة إلى صراع من أجل المصالح. ومن الضروري عند هذه النقطة أن يظل الصراع مرتبطًا بالتناقض العقدي؛ لأن ذلك ينبه الخصم إلى أننا نصارع من أجل القيام بواجب ديني دعوي، وليس من أجل تحقيق مصلحة مادية خاصة. وحين يأخذ الصراع طابع تحقيق المصالح، يفقد الكثير من مشروعيته، ويفقد المساندة التي يحتاجها من عموم الأمة.

٤ - في حالة التناقض تكون مقولات المتناقضين أقرب إلى الجلاء والوضوح، وحين يبدأ الصراع كثيرًا ما ينطمس التناقض المنهجي، وتسود روح الثأر والانتقام ولذا كان من

أدبيات الصراع المسلح لدى المسلمين أن يبدؤوا بدعوة الخصم إلى الإسلام أولًا إعلانًا منهم أنه قتال بسبب التناقض، وما يستلزمه وليس من أجل مصلحة دنيوية. وحين أوصى أبو بكر ﷺ جيشه وصيته المشهورة بعدم قتل النساء والأطفال إلخ... كان يهدف إلى ألا تضيع ميزات جيش المسلمين وأخلاقياته وأهدافه الأصلية من الجهاد في خضم الصراع ومحاولات الغلب والظفر.

٥ - الدعوة إلى الله تعالى هي الأساس وانتشارها هو الهدف، وحتى نتيح للناس سماعها، فيجب أن نهيِّئ الأجواء الملائمة للتبليغ. وحين ينشب صراع فيجب أن يستهدف على المدى البعيد تحقيق تلك الأجواء. ولذا فإن الصراع الشديد والطويل كثيرًا ما يطمس معالم التناقض، ويحرم الدعوة من الهدوء الذي تحتاجه. وربما كان قبول النبي ﷺ بشروط قريش المجحفة في صلح الحديبية من أجل تأمين الجو الهادئ الذي يتيح لقريش التعرف على الإسلام.

٦ - يأخذ الصراع شكل الطفرة وشكل الانقلاب ويتسم القائمون عليه بالحدة وقصر النفس، وتسيطر عليهم العاطفة. أما التميز المنهجي والحضاري فيأخذ شكل العمل المتراكم، ويتحلى أصحابه بروح الثورة والاستمرارية والعطاء على المدى البعيد. ومن المهم ألا نفقد هذه الروح في حمأة الغضب.

٧ - نقطة التفوق الكبرى لدى أمة الإسلام اليوم تتمثل في المنهج الرباني الذي تشرُف بحمله. على حين أنها في الميادين الاقتصادية والتقنية والعسكرية ضعيفة وعالة على الأمم الأخرى. ولذا فإن من المهم أن نكثِّف المجابهة في الساحة التي نملك عناصر القوة فيها، وأن نكون على حذر، من أن يجرنا الخصم إلى ساحة تفوُّقه، فنفقد ميزاتنا، وتضطرب أمورنا.

* * *

التقدم: صناعة اهتمامات

لعل أكبر مشكلة تواجه الدول النامية والمتخلفة هي تحديد الأسباب الحقيقية التي جعلتها تعيش على هوامش الحضارة وأطراف العالم المتقدم. وما ذلك إلا بسبب انخفاض درجة وعيها بنفسها وإمكاناتها والتحديات التي تواجهها. ومن هنا فإن حاجة الأمة ماسَّة إلى أن تضغط بإصبعها على موضع الداء، وأن تسعى إلى تحديد الأسباب الجوهرية التي أدَّت إلى الإصابة به، لتهتدي بالتالي إلى سبيل الشفاء.

في اعتقادي أن أفضل طريقة لتحديد أسباب التخلف تكمن في البحث عن القواسم المشتركة ونقاط الالتقاء لدى كل الشعوب التي تعيش على حوافٍّ العالم اليوم. وإذا وصلنا إلى هذا الحد من القول، فإنني أرى أن سمة (فقد الاهتمام) تعد من السمات العامة التي يمكن أن نشاهدها أينما تجولنا في أصقاع العالم النامي - ومنه بالطبع العالم الإسلامي - حيث يتجسَّد في سلوك الناس شعار (لا شيء يهم) وحيث ترى سيلًا لا ينقطع من المواقف التي تنم عن عدم الاكتراث واللامبالاة.

وفي المقابل فإن معظم الناس في العالم الصناعي يهتمون بالأشياء الصغيرة والصغيرة جدًّا، وتستوقفهم التفاصيل

الدقيقة، ويحاولون حساب كل شيء، إلى حدٍّ الوسوسة. حين وقعت الأحداث الأخيرة في الولايات المتحدة، اندفع كثير من الناس هناك إلى شراء الكتب التي تتحدث عن الإسلام، وحضر بعضهم دورات في المراكز الإسلامية من أجل فهم الخلفية الثقافية لمن اتُّهِموا بتلك الأحداث. أما عندنا فمن أندر النادر أن ترى شخصًا يحاول سبر أغوار الثقافة الأمريكية أو معرفة طبيعة القوى التي توجه حركتها!

ولذا فإن من الممكن القول: إن درجة اتساع اهتمامات أي أمة، هي معيار حقيقي لمدى تقدمها ومعاصرتها، والعكس صحيح.

ولعلي أستجلي في هذه القضية النقاط الثلاث الآتية:

١ - إن الذي ينظر بعمق إلى المرامي البعيدة لآيات القرآن الكريم يجد أنه كان يقصد قصدًا إلى توسيع دائرة اهتمامات الإنسان المسلم على مستوى الزمان والمكان والأشياء، وذلك كي يساعده على القيام بمهمة الاستخلاف وبسط سلطانه على كل ما حوله. وفي هذا الإطار نجد أن القصص القرآني الذي تناول أخبار الأمم السالفة، جعل المسلم ينخرط في السياق العام لتاريخ البشرية، ليبصر أيام الله - تعالى - فيها، وليبصر ملامح الخير والشر في سلوكاتها.

وحديث القرآن الكريم عن المستقبل لم يكن يستهدف إعداد المسلم للنجاح الأخروي فحسب، وإنما استهدف توسيع مدى الرؤية لديه، وتخليصه من أسر اللحظة الراهنة الذي يقع فيه الإنسان الكَلّ المعطَّل. وحديث القرآن الكريم عن سلوك الحيوان (كالنحل والنمل مثلًا) وعن الجبال والأنهار والرياح والأفلاك... يثري ثقافة المسلم بالبيئة المحيطة، ويلفت نظره إلى وجوه التسخير في هذه الأشياء، فيقيم معها العلاقة التي تمكنه من الانتفاع بها.

ولا يكتفي القرآن الكريم بذلك؛ بل يوسِّع دائرة اهتمامات المسلم ليتفاعل مع أحداث كبرى تجري في زمانه - مهما كان بعيدًا عن التأثر بها - كما في إخباره عن الصراع بين الروم والفرس، وإعلامه المسلمين بأن الغلبة ستكون للروم في بضع سنين؛ بل إن القرآن الكريم يصور لنا المشاهد المؤلمة التي تحكي معاناة بعض الناس (كما في قصة أصحاب الأخدود) ليجعل من الحزن وسيلة اتصال مع الناس والعالم. والسؤال الذي يفرض نفسه بعد هذا: لماذا يقرأ المسلمون القرآن الكريم كل يوم دون أن تشتعل لديهم جذوة الاهتمام؟!

٢ - كثير من الناس يملكون كل مقومات العظمة لكنهم لم يصبحوا عظماء لا لشيء إلا لأن اهتماماتهم تافهة. وكثير من الدول تملك ثروات هائلة، لكن خمول شعوبها،

وتجرد أبنائها من السعي لأي هدف عظيم حرمها من التفاعل مع المعطيات الحديثة، وجعلها لا تنتفع بثرواتها المتعددة. وقد كان (المال) في الماضي عماد الثراء الشخصي والأممي، كما كان عمود النجاح في النظام التجاري.

وقد أخذ كل ذلك الآن بالتغير، وأخذت تحل محلَّه أشياء غير مادية؛ فثراء الأشخاص (وكذلك الأمم) لم يعد يقوَّم بالأرصدة والممتلكات، وإنما بمقدار ما يملكون من اهتمامات ودوافع وأفكار ومعلومات ونظم. وهذا ما يفسِّر لنا انتشار الجوع في بلدان عربية تملك الأراضي الخصبة والمياه الوفيرة، على حين تملك دولة (مثل لبنان) مساحة محدودة من الأرض الزراعية، ومع هذا فهي تصدر الخضار والفاكهة إلى عدد من الدول!

٣ - تسجل الدول الصناعية (٩٧٪) من براءات الاختراع، وتترك لـ (٨٠٪) من سكان الأرض (٣٪) فقط. وفي عام (١٩٩٨م) سجَّل اليهود في فلسطين (٥٧٧) براءة اختراع لدى مكتب العلاقات التجارية الأمريكي، على حين سجَّل العرب (٢٤) براءة اختراع فقط!! وكثير من تلك البراءات تُسجَّل من قبل (هواة) ومهتمين غير محترفين، لكنهم ينتمون إلى شعوب تسيطر عليها فضيلة الاهتمام. وأقرب مثال على هذا برامج الحاسب الآلي؛ إذ إن معظم البرامج الموجودة في الأسواق هي من تصميم هواة.

إن أمتنا لن تقف في مصاف الأمم ما لم يسهم كل واحد من أبنائها بشيء مفيد يضاف إلى رصيدها العام ليتشكل لدينا من قطرات الماء نهر أو جدول، ومن الحصى المتناثر تلّ أو جبل. وإن كثيرًا من القصور الذي نعاني منه في هذا الشأن يعود إلى التربية الأسرية التي يتلقاها أبناؤها، ثم تأتي المدارس لتزيد الطين بلّة، فهي لا تهتم بتكوين الشخصية لطلابها، وليس عندها أي برامج أو تدريبات لبعث الاهتمام بالأشياء المفيدة أو الجديدة! وكان عليها عوضًا عن الأرقام الصماء التي تلقنها لطلابها عن إنتاجية العالم المتقدم أن تشرح لهم العوامل والأخلاقيات التي تقف خلف تلك الأرقام، من نحو سعة الاهتمام والمثابرة والجدية والتنظيم والتعاون... وأن تشرح لهم الدور الرائع الذي تؤديه المبادرة الفردية والهوايات المتعددة والمشروعات الصغيرة في إغناء حياة العالم المتقدم.

إن أمتنا لن تحصل على المقام الذي تستحقه ما لم يصبح الاهتمام بالميزات والتفاصيل والأشياء الصغيرة حركة مجتمع لا حركة صفوة.

* * *

تحرير المفاهيم

تعاني كل الأمم والشعوب من تهجين التصورات والمفاهيم؛ حيث يعمل الخيال الشعبي على صياغة رؤى الناس عن الماضي والمستقبل، وعما هو كائن وما ينبغي أن يكون على نحو يجعلها قريبة مما يطفو على سطح الحياة الاجتماعية.

إن الخيال الشعبي يهمه دائمًا أن يسلكَّ المفاهيم والرؤى والأفكار التي تحمل خاصية الذيوع والانتشار، أي تلك التي تكون قريبة المأخذ سهلة الحفظ؛ ولو كان ذلك لا يتم غالبًا إلا على حساب صحتها وعمقها.

إن تجربتنا الثقافية عبر التاريخ تجعلنا نتوجس خيفة من المفاهيم الأكثر انتشارًا، فهي خلال عملية الانتشار تتعرض للكثير من الانتهاك والتحريف والتسطيح؛ وتمارس من ثَمَّ دورًا مضللًا لمعظم الناس. ولهذا فإننا اليوم في أمس الحاجة إلى مراجعة الكثير الكثير من المفاهيم السائدة في حياتنا؛ لأننا من غير ذلك لا نستطيع أن نحرر ذواتنا من الأوهام، كما لا نستطيع أن نهتدي إلى الطريق الحضاري الصحيح. **ولعلي هنا أمارس دور المراجعة للمفاهيم الأربعة التالية:**

١ - قدرة أم إرادة؟

العبارة التي لا يمل الناس عندنا من تكرارها، هي: نحن

لا نستطيع أن نقول كذا، نحن لا نستطيع أن نفعل كذا... وهم في حقيقة الأمر يقدرون، لكنهم لا يريدون. هل يستطيع أحد أن يصدِّق أن أمة الإسلام بطولها وعرضها غير قادرة على حماية نسائها وأطفالها في فلسطين، وعاجزة عن تقديم الدعم لإخواننا هناك حتى ينتزعوا حقهم بأيديهم؟!

إن الذي يحاول ويجرب ثم لا يستطيع هو وحده الذي يمكنه أن يقول: أنا لا أستطيع. أما الذي لم يحاول فإنه لا يريد أن يصنع شيئًا. وهذا ما علمنا إياه القرآن الكريم: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴾ [التوبة: ٤٥، ٤٦]. إن ترك المنافقين للاستعداد بالسلاح والزاد والراحلة من أجل الخروج للجهاد دليل على أنهم أرادوا التخلف وعدم الخروج.

٢ - ذكاء أم عمل؟

إذا رأى الناس شخصًا متفوقًا فسَّروا تفوقه بالذكاء والموهبة، وهذا التفسير أيضًا مما صنعه الخيال الشعبي؛ حيث يقول الناس: « الديك الفصيح من البيضة يصيح »! وهو تفسير غير دقيق. لا أحد ينكر قيمة الذكاء والموهبة في التفوق والنجاح، لكن تلك القيمة أقل بكثير مما نظن؛ وذلك لأن البارئ - جلَّ وعلا - وزَّع الذكاء على الأمم بالتساوي،

وتقدم الشعوب التي تقدمت لم يكن بسبب الإمكانات الذهنية، ولكن بسبب التثقف والتدريب والتنظيم والعمل والمثابرة. أما الأمم المتخلفة فإنها لم تتخلف بسبب انخفاض مستوى ذكائها، ولكن لأن معظم أبنائها لم يمتلكوا العادات العقلية والنفسية والسلوكية التي يمتلكها الناجحون.

٣ - نجاح أم انحراف؟

الناس اليوم مفتونون بالنجاح والناجحين، ويعدون ناجحًا كل من استطاع تكوين ثروة عريضة وإقامة علاقات واسعة، وامتلاك شخصية جذابة. ولا يتساءلون: كيف تم ذلك وما الأدوات والأساليب التي استخدمها ذلك الناجح للوصول إليه؟ وهذا مصادم للرؤية الإسلامية الواضحة إلى حد التألق، والتي تقول: كل نجاح لا يصب في النجاح الأخروي ويساعد عليه هو نجاح مؤقت وصغير. وكل نجاح لا يتم عن طريق مشروع هو خسران مبين في الدنيا يجعل المرء ينقسم على ذاته، وخسران مبين في الآخرة يوم يعود لكل ذي حق حقه.

٤ - هدف أم أمنية؟

معظم ما يداعب خيال الناس أمنيات وتطلعات وطموحات. وقد تعودوا تسميتها أهدافًا؛ مع أن الهدف لا يكون هدفًا إلا إذا كان واضحًا محددًا، وكان لدى صاحبه برنامج وخطة للوصول إليه. ولو أن (١٠٪) فقط

مما يسميه الناس أهدافًا كان فعلًا كذلك لتغير حال العالم!!

تحرير المفاهيم وتصحيح التصورات جزء من تكاليف الريادة الثقافية، وعلى المثقفين الرواد أن يدفعوا تلك التكاليف عن طيب خاطر.

* * *

الوطنية: انتقال من الغريزة إلى العقل

مفهوم الوطن من أكبر المفاهيم التي تتغلغل في طبقات وجودنا غير الواعي ويبدو أنه راسخ في التراث الجيني للبشرية، كما أنه كذلك بالنسبة إلى الحيوان.

المجال الحيوي الذي يرسمه كل واحد منَّا لنفسه، يعمق مفهوم (الوطن) واقتحام ذلك المجال يثير فينا مشاعر عدوانية لا يثيرها أي تصرف آخر. الأعلام والرايات التي ترفعها الدول فوق أراضيها تحمل معنى الاختصاص بمكان والتمسك به والذود عنه. وللمكان عبقريته الفذة القادرة على توليد ما لا يحصى من المشاعر والمفاهيم والخلفيات المشتركة بين كل أولئك الذين يقطنون فيه، ومنها جميعًا تتشكل معاني (المواطنة) على نحو مبهم وغير مرئي.

ولعلي أقف مع مسألة الوطنية الوقفات التالية:

١ - الوطنية ذلك المعنى النبيل شيء أسمى من الحضور في مكان والانتماء إليه؛ إنها كيان معنوي يبنيها الأفراد الصالحون من خلال التضحيات التي يقدمونها من أجل صلاح المجموع وسلامتهم وكرامتهم. وهذه التضحيات تتعاظم لتبلغ حد التضحية بالحياة نفسها؛ ولذا فإن (الشهيد) يمثل رأس الهرم في البناء الوطني؛ ولن يكون المواطن صالحًا

إلا إذا حمل بين جوانحه معنى من معاني الشهادة، والتي تمثِّل قمة العطاء غير المحدود، وغير المشروط. والذين لا توحي إليهم (الوطنية) بمعنى من هذا القبيل يشكِّلون عبئًا على أوطانهم.

٢ - حب الوطن والساكنين فيه ومناصرتهم، غريزة لدى الإنسان، يندفع للعمل بمقتضاها دون وعي منه؛ لكن من الثابت أيضًا أن اجتماع الناس بعضهم مع بعض، يولِّد في حد ذاته توترات كثيرة بسبب ضعف المفاهيم الجامعة وتصادم المصالح وانتهاك الفضاءات الخاصة. وهذا يعني أن على أبناء كل وطن أن يبحثوا عن صيغة للتعايش إذا ما أرادوا تحقيق درجة من التقدم الحضاري. وهذه الصيغة لا يمكن لها أن تنشأ من غير توفير الحد الأدنى من القيم المشتركة والفهم المتبادل. وهذا من جهته يتطلب أن ننمي في العقلية الجماعية رؤية واضحة لمعطيات الواقع وآفاق المستقبل.

إن ما لدينا من غرائز ودوافع فطرية، يظل كافيًا لتوجيه وتنظيم أوضاعنا البدائية، مما هو على شاكلة النمو والتكاثر والحد الأدنى من البقاء؛ لكن الإنسان الذي كرَّمه الله - تعالى - وجعل منه خليفة ومتَّعه بالخيال والطموح والإرادة الحرة لا يستطيع أن يحيا بكامل خصائصه، كما لا يستطيع توفير كل حاجاته إذا ما خضع للدوافع الغريزية؛ بل عليه دائمًا أن يتخذ قرارات صعبة وشاقة، ومن تلك القرارات

تنبثق إنسانيته؛ حيث تنشط دوافعه العدوانية في ظل نظم قيمية تكسر حدّتها، وتجعلها جزءًا من حياة طيبة متوازنة تُلبى فيها الرغبات في إطار من المشروعية والتعاون والتضامن الأهلي.

٣ - على مدار التاريخ، وفي كل مكان من الأرض ظلت (الوطنية) تعاني من معضلتين اثنتين، هما: فوضى المشاعر، وعدوان الطموحات غير المحدودة. ونجد في سياق المعضلة الأولى أن سعي الكائنات الحية بدءًا بالفيروس وانتهاءً بالإنسان إلى المزيد من الاستقلال قد أجج مشاعر الأنانية والبحث عن الخلاص الشخصي لدى كثير من الناس بعيدًا عن التفكير في شجون الآخرين. وجاءت (العولمة) لتعزز هذه النزعة، فهي تزيد في مشاعر الفردية، وتدمر أحاسيس التعاون والانتماء بما تمارسه من خلع للفرد من أسرته، وللأسرة من المجتمع، وللمجتمع من أمته الكبرى. وهذا ما أشاع في الناس هواجس الخوف من المستقبل.

ونجد إلى جانب هذا مشاعر الولاء المتطرف للوطن والتعلق بكل ما فيه، والحرص الشديد على عدم مغادرته مهما كان الثمن، ومشايعة أهله على الحق والباطل. وقد تضخم ذلك عند بعض الشعوب حتى أفرز حركات قومية وعنصرية (النازية نموذجًا) غاية في التطرف وتمجيد الذات واحتقار الآخرين. وهي تطل برأسها من جديد اليوم في أكثر دول

العالم إحرازًا للتقدم التقني. وهذا كله يتم بدافع من الغريزة بعيدًا عن موازين الحق والعقل. وقد قال الشاعر العربي قديمًا:

وما أَنَا إلا من غُزيَّةَ إن غَوتْ
غوَيْتُ وإن تَرْشُدْ غُزِيَّة أرشدِ

وقال آخر:

إذا أنا لَمْ أنصُرْ أخي وهو ظالم
على القَوْم لم أنصُرْ أخي حين يُظلم

إن مجال الوجدان يستعصي أكثر من أي مجال آخر على سلطات العقل؛ مما يجعل الفوضى والاختلال من سماته الأساسية.

حين جاء الإسلام رشَّد قضية الولاء للوطن ومشايعة أهله في جملة ما رشَّد من شؤون الحياة. ونجد في هذا الصدد أن اللَّه - تعالى - أخذ على المنافقين أنهم متشبثون بالإقامة في أوطانهم إلى حد عصيان أمر اللَّه حيث يقول: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ [النساء: ٦٦]. وذكر أنه قد يكون في مغادرة الأوطان والهجرة في سبيل اللَّه سعة في الرزق وإرغام للعدو: ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ ﴾ [النساء: ١٠٠].

وفي الحديث الصحيح: « **انصر أخاك ظالماً أو مظلومًا** » فقال رجل: يا رسول اللّٰه أنصره إذا كان مظلومًا؛ أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: « **تحجزه عن الظلم؛ فإن ذلك نصره** » [1]. وقد كان من جملة بنود الوثيقة التي أنجزها النبي ﷺ لتنظيم العلاقة مع اليهود في المدينة نصرة المظلوم والأخذ على يد الظالم. إنها صياغة جديدة للمشاعر والمواقف وردود الأفعال.

المعضلة الثانية التي أضرت بالمشاعر الوطنية هي الطموحات الجامحة لدى كثير من الناس، والتي تدفع على نحو صارخ إلى اختراق المجال الخاص للآخرين والعدوان على حقوقهم وحرمانهم من فرص الترقي الاجتماعي والاقتصادي. إن الشعور بالواجب تجاه حقوق الوطن والمواطنين، لا يتولد لدى المرء إلا إذا شعر بشرف الانتماء لذلك الوطن، وهذا من جهته لا يتوافر إلا إذا أحسَّ الناس بأنهم ينالون ما يستحقونه دون عناء. وقد قال أحدهم: « لماذا أدافع عن وطن لم يطعمني من جوع، ولم يؤمِّني من خوف »؟!

انخفاض سوية الالتزام لدى كثيرين منا بالإضافة إلى أزمة (قصور المفاهيم) التي نعاني منها على أكثر من صعيد يجعل الشأن العام بعيدًا عن بؤرة الاهتمام.

---

(١) رواه أحمد في مسنده، من حديث أنس بن مالك.

ويبدو أن ما أحرزه الفرد من وعي أعلى بكثير مما أحرزه المجتمع، مما يجعله يندفع نحو أهداف وغايات غامضة، ويجعل نمو المعاني والمفاهيم الجمعية بطيئًا.

لا يمكن توليد مشاعر وطنية صادقة من غير توافر كتلة حرجة من النماذج الخيّرة التي تعلم الناس بسلوكها معاني الاستقامة والتضحية، ومن غير امتلاك شفافية جديدة نحو العدل (بكل مستوياته ومظاهره) ومن غير مراقبة جيدة لاستثمار التفوق حتى يظل ضمن أطر مشروعة. وإلى أن يتم ذلك، فإن لنا أن نتوقع الكثير من أنماط الإساءة للمعاني الوطنية، والمزيد من الاستغلال الجائر لها.

* * *

من طبائع الأشياء

المعرفة هي صناعة الإنسان، والجهل داؤه، والعلم ترياقه.

من خلال الملاحظة وتراكم الخبرات والاستبصار والخيال وقراءة الأحداث واكتشاف العلاقات بين الأشياء ومعرفة سنن اللَّه - تعالى - في الخلق، من خلال كل ذلك نبني معارفنا، ونكوِّن انطباعاتنا، وننظم بالتالي مواقفنا وردود أفعالنا.

المعرفة عبارة عن معلومات، والعلم معارف منظمة ومبوبة. والعالم سواء أكان كبيرًا أم صغيرًا يشتغل على الجزئيات إدراكًا واستنباطًا وتطويرًا. أما المفكر أو الحكيم فإن الذي يسيطر هو الاشتغال على الكليات واستكشاف القوانين والوقوف على الملامح العامة. إنه شغوف بتشكيل الرؤى التي تحدد المسارات العامة، وشغوف بصناعة المفاهيم الكبرى وصياغة مناهج البحث ومناهج التفكير. وإذا كنا في حاجة إلى كل من العالم والمفكر، فإن على كل واحد منهما ألا يقلل من شأن الآخر بل عليه أن يعترف به، ويحاول الاستفادة من عطاءاته.

فقه السنن وفهم طبائع الأشياء، من الأعمال العظيمة التي يحق للمرء أن يغتبط، ويبتهج إذا حقق فيها نجاحًا عظيمًا؛ لأن ذلك يدل على استقراء ممتاز للوقائع المتفرقة، كما يدل على شفافية عالية وخيال خصب قادر على ضم النظير إلى

النظير، والخروج من سجن الجزئيات والرؤى الذرية المبعثرة.

وإن مما يؤسف له أن المهتمين بالفهم الكلي قليلون دائمًا بسبب مشقة العمل في هذا المجال، وحاجته إلى إمكانات ذهنية، قد لا تتوافر لدى كثير من الناس.

فهم طبائع الأشياء قد يحتاج إلى أن نهتمّ على نحو عميق بملاحظات النابهين جدًّا من كبار الاختصاصيين، ثم نحاول التفريع عليها وإضافة ما تمكن إضافته إليها. حين نعرف السنن التي تحكم مجالًا أو عملًا أو علاقة ما، فإن ذلك يجعلنا كمن يكتشف سبلًا عامة عريضة، تتفرع عنها دروب صغيرة. وآنذاك فإننا نستطيع التفريق بين المطّرد والشاذ والمألوف وغير المألوف والطبيعي وغير الطبيعي؛ كما نستطيع أن نثمن المعلومات الواردة عن ذلك المجال... وأن نكتشف ما يمكن أن يكون قد دخلها من زيف وتزيد.

وأنا هنا أحاول أن أوضح بعضًا من طبائع بعض المجالات المعنوية والحياتية؛ وينبغي أن يؤخذ كل ما أقوله هنا على أنه مقاربة واستشراف ليس أكثر.

١ - المجال الفكري:

التفكير هو: اشتغال العقل على بعض المعلومات من أجل الوصول إلى أمور مجهولة. ومن طبيعة هذا المجال الآتي:

صدور المفكر عن رؤية جانبية؛ إذ مهما كان العقل

متيقظًا ومدربًا، ومهما كان خياله واسعًا، وكانت معارفه عميقة وشاملة، فإنه لا يستطيع أن يحيط بكل الأمور المتعلقة بالقضايا التي يفكر فيها، أي إن المقدمات التي ننطلق منها إلى بلورة حكم أو الحصول على نتيجة معينة، ستظل مقدمات ناقصة. ولو أننا استشرنا أفضل مركز دراسات متخصص في مشروع من المشروعات أو مشكلة من المشكلات، لما صدر إلا عن رؤية جزئية. ورحم اللَّه الإمام مالك بن أنس حين كان يستشهد عند إفتائه في مسألة من المسائل بقوله - سبحانه -: ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية: ٣٢].

وجود الأخطاء في المجال الفكري أمر طبيعي وكثير الانتشار؛ وذلك لأن العقل وهو يعمل على الوصول إلى بعض الرؤى والمحكات والأحكام... يُنتج الأخطاء والأوهام بسبب هشاشة المقدمات والأسس التي يبني عليها أو بسبب سوء التقدير لطبيعة العلاقة التي تربط بين الأسباب والمسببات والمقدمات والنتائج. وهذا يتطلب منا أن نكون دائمًا يقظين للمنتجات الجانبية لعمل العقل، كما يجعلنا في حاجة دائمة لمراجعة طروحاتنا وأفكارنا.

كثيرًا ما يصاب المشتغلون بالقضايا الفكرية بالجفاف الروحي. ولست أعرف الأسباب الأكيدة لهذا، لكن ربما كان ذلك بسبب أن الإشراق الروحي يحتاج إلى جهد تعبدي عملي على حين أن المشتغلين بالقضايا الفكرية يكونون

عادة مشغولين بالتنظير واكتشاف الأسباب والعلل. وأحيانًا يؤدي إدمان التنظير إلى شيء من الترهل الروحي بسبب أنه يجعل صاحبه أكثر تفهمًا للواقع؛ ومن ثم أكثر خضوعًا له. وهذا يؤدي إلى انخفاض في درجة التسامي والذي يعد حجر الأساس في التفتح الروحي؛ وعلينا أن ننتبه إلى هذا.

من أعمدة العمل الفكري الاختزال والتنميط؛ حيث يتشوق المفكر إلى استخلاص بعض القوانين والمقولات العامة من أكوام المعلومات والمعطيات الجزئية. وينتج عن هذا القيامُ بتحييد الكثير من الأقوال والمعلومات الموثوقة؛ فالبناء الفكري بطبيعته - كما هو شأن البناء التاريخي - هو بناء انتقائي. وفي أثناء عملية الانتقاء تتم الاستهانة بأمور ومعطيات قد تكون جوهرية وحيوية. هذا بالإضافة إلى أن المفكر بسبب اشتغاله بالأمور الكلية يزهد عادة بكل ما هو جزئي وفرعي. وأتصور أن علم (مقاصد الشريعة) لم ينم، ولم يتبلور بالشكل الكافي؛ لأن الذين اشتغلوا على إنضاجه لم يكونوا من المشتغلين بالفلسفة الكلية للتشريع، كما أن خبرتهم بفقه الأولويات كانت ضئيلة؛ مما جعل قدرتهم حيال دمج بعض النصوص الصحيحة في المرامي العامة للشريعة السمحة محدودة.

في المجال الفكري يتألق العقل وتبرق اكتشافاته، وهذا يجعل المشتغلين بالفكر يشعرون بنوع من الوثوقية الزائدة،

فيطلقون الأحكام في أحيان كثيرة من غير قدر كافٍ من الروية والتأمل، وكم عانينا من موجات النقد غير الأصيل وغير المحكم بسبب الإفراط في الثقة بما لدينا من أفكار ومفاهيم، هي في كثير من الأحيان تقبل الجدل والمراجعة.

٢ - المجال الروحي:

المكمن الحقيقي للذات الإنسانية، هو الروح والمشاعر والعواطف وليس العقل والأفكار والمفاهيم. وقد دلتنا الخبرة على أن المجال الروحي شديد الجاذبية، وهو يملك قدرة هائلة على جعل الناس يتجاوزون الضوابط والحدود التي يضعها العقل؛ بل تلك التي يضعها الشرع أيضًا. وإذا تأملنا في أقوال وسلوكات كل أولئك الذين حدثنا التاريخ عن إغراقهم في المسائل الوجدانية والروحية وفي قضايا الأحوال والمقامات والكرامات والتجليات والنفحات... لوجدنا أنهم - إلا النزر القليل - قد استسهلوا تجاوز النصوص الشرعية، أو صاروا إلى تأويلها على نحو لا يخلو من الفجاجة والتعسف.

إن المشاعر الجياشة التي قد يجدها بعض العباد كثيرًا ما تقوم بدور المخدر أو المعطل لملكة العقل والمعطل لدور النصوص والأحكام الشرعية في توجيه سلوك المسلم وضبط مقولاته. وهذا ليس خاصًا بالمسلمين ولا بأهل أي ملة من

الملل؛ بل هو عام يشمل كل أو جلّ من يشتغل بالمسائل الروحية والوجدانية. وقد عانت الأمة كثيرًا من أهل (الشطحات) الذين كانوا يلقون بالكلام على عواهنه استجابة للخواطر والوساوس والأوهام والرؤى المنامية. ومن هنا فإن على كل من يهتم بالشأن الروحي أن يحرص الحرص كله على أن يظل في إطار المشروع، وألا يغض الطرف عن الرؤية الفقهية لما يصدر عنه من أقوال وأعمال.

المجال الروحي يوفر لكل من يدخله درجة عالية من الطمأنينة والسرور والانشراح؛ ولا عجب إذ إن الصلة باللَّه - تعالى - ومناجاته والتودد والتذلل إليه والتذلل بين يديه لا تأتي بغير هذا؛ لكن الملاحظ أن هذه الدرجة من الحبور تدفع من يتمتع بها إلى الانطواء على نفسه والميل إلى العزلة والاستخفاف بما يجري في المحيط الخارجي من أحداث. وقد كان من الأدبيات المشهورة لدى العباد والزهاد أو طائفة منهم على الأقل، أن من علامات ولاية الشخص أو أسس الولاية الذكر والصمت والعزلة والجوع. ومن هنا فإن المسلم مطالب إلى جانب تزكيته لنفسه وتطهيره لقلبه وصقله لروحه بألا يندفع من حيث لا يدري إلى تضييع الواجبات الاجتماعية والدعوية، وحتى لا يقع في هذه المصيدة فإن عليه دائمًا أن يتذكر أهدافه وواجباته.

٣ - المجال الوعظي الإرشادي:

هذا المجال كثيرًا ما يعكس غيرة المسلم وخيريته وحرصه على تبليغ الرسالة وعلى استقامة المسلمين وتحسّن أحوالهم، وهو مجال مهم، وله دور حيوي في إبقاء الوعي الإسلامي متيقظًا ومنفتحًا على الأوامر والنواهي.

من طبيعة العمل في هذا المجال دفع العاملين فيه إلى السحب من رصيد الحقيقة، وتجاوز البراهين والأدلة المتوافرة على حكم من الأحكام أو في قضية من القضايا أو مقولة من المقولات، فحماسة الداعية للقضية التي يتحدث عنها وحرصه على إقناع الناس بما يقول يجعلانه لا ينتبه إلى أنه تجاوز القصد والاعتدال، وأنه صار يسلك مسلك مندوبي الدعاية والتسويق والذين لا همّ لهم سوى أن يبيعوا أكبر عدد من الزبائن بأعلى قدر من الأسعار! الوعاظ والدعاة اليقظون والورعون جدًّا هم الذين يستطيعون النجاة من ذلك إلى حد بعيد، ولكن ربما بشكل غير مستمر.

وظاهرة القصّاص في التاريخ تحكي في معظم الأحوال هذه الحقيقة. وقد وضع أقوام منهم بعض الأحاديث من أجل حث الناس على عمل ما يعتقدون أنه مهمٌّ لفلاحهم. ولما حُذِّر بعضهم من ذلك، وذُكِر لهم الحديث « **من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النَّار** ». قالوا: « نحن نكذب له لا عليه »!!!

السحب من رصيد الحقيقة يتجلى أحيانًا في التهويل

والمبالغة حين يُصوَّر خطأ من الأخطاء أو معصية من المعاصي على أنه كارثة الكوارث. وحين يُصوَّر عمل من الأعمال النبيلة على أنه السفينة التي ستنقل الناس إلى برّ الأمان. ويتجلى السحب من رصيد الحقيقة في أحيان أخرى في التعليلات الفاسدة والتحليلات السطحية والقول بغير علم؛ وهذا كثيرًا ما يتم من غير وعي ولا إدراك. ومن هنا فإن المشتغلين بالوعظ في حاجة إلى طاقة هائلة من أجل ردع أنفسهم عن الانسياق خلف عواطفهم.

٤ - المجال التجاري:

يُثبت النظام التجاري يومًا بعد يوم أنه أقوى النظم الثقافية على الإطلاق، فإذا كان المرء طبيبًا وتاجرًا، فإن التجارة ستخطفه - في الغالب - من الطب، ويؤول أمره إلى أن يصبح تاجرًا بمعنى من المعاني. وكذلك الشأن فيما لو جمع المهندس والمدرس والمزارع والموظف بين مهنته وبين التجارة. وإني أظن أن هيمنة التجارة على حياة الناس نابعة في الأساس من أنها تعد بآفاق غير محدودة من الربح والثراء. وهذا ما يبحث عنه الإنسان الذي لا يملأ فمه إلا التراب. وقد ورد في الحديث أنه في آخر الزمان تفشو التجارة حتى إن المرأة لتشارك زوجها في التجارة. مما يدل على قدرة هذا النظام على اختراق كل العلاقات حتى العلاقة الخاصة القائمة بين الزوجين.

في المجال التجاري تكثر الأيمان ويكثر المديح للسلعة والتشكي من الخسارة فيما إذا بيعت بأقل من كذا وكذا. وفي المجال التجاري يكون الغش والدعاية الكاذبة والإعلان المبالغ فيه، كما يكون فيه إخفاء العيوب، ويكثر بخس الناس أشياءهم، وكل ذلك استجابة لضغوط الشهوة إلى تكديس المال والتي تسيطر على نفوس البشر.

في زماننا تقوم العولمة على نحو جوهري على التجارة وعلى نشر الأخلاق والمفاهيم والتقنيات التي اعتمدها النظام التجاري، وهي في الغالب سيئة. ولهذا فإن مجال التجارة من أخطر المجالات على دين المرء وصدقه وأمانته. وقد أثنى اللَّه – جلّ وعلا – على أولئك الرجال الذين لا يشغلهم شاغل عن ذكر اللَّه والقيام بواجباتهم، وخص البيع والتجارة لشدة تأثيرهما في صرف الإنسان عن المسار الصحيح، فقال سبحانه: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧] الآية. وقد ورد أن ابن عباس ﷺ قال لأصحاب الكيل والميزان من التجار: « إنكم وليتم أمرين هلكت فيهما الأمم السابقة قبلكم » [١].

معرفة طبائع الأشياء تعني معرفة السنن التي سنها اللَّه –

---

(١) قد ورد رفعه بإسناد فيه ضعف.

تعالى - وبثها في الأنفس والموجودات؛ وهي معرفة مهمة جدًّا لفهم أنفسنا وفهم العالم من حولنا. والخروج عن هذه الطبائع يظل في كثير من الأحيان ممكنًا، لكنه يحتاج إلى مجاهدة وإلى جهد استثنائي، حيث السباحة عكس التيار، وحيث الخروج على المعروف والمألوف.

* * *

مدّ الجسور

اقتضت حكمة اللَّه - جلَّ وعلا - أن يكون التغيير والاختلاف سنة ماضية في الحياة؛ فعند الخوض في التفاصيل نجد الكثير الكثير من الاختلافات بين الناس، حتى إنه ليمكن القول: إن عقول الناس ومرئياتهم تختلف على نحو قريب من اختلاف ملامح وجوههم. وقد قال - سبحانه -: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] قال بعض المفسرين: ولذلك خلقهم أي للاختلاف والتباين.

واللَّه - جلَّ وعلا - كما يبتلي بوحدة الكلمة والرأي يبتلي الناس كذلك بالنزاع والاختلاف وتشتت الآراء والمذاهب لينظر كيف يتصرف العباد في كلا الحالين، وهذا واضح في قوله - سبحانه -: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [المائدة: ٤٨] يعني الاختلاف في قضية من القضايا أو حكم من الأحكام: وجود هوة فاصلة بين شخصين أو فريقين أو أمتين، حالت دون وحدة الرأي والفهم وتطابق الموقف والتقييم.

والعلاقات الإنسانية السوية والثرية لا تقوم أبدًا على التطابق التام، كما أنها لا تقوم على النزاع والشقاق، وإنما تقوم على درجة من الخلاف المؤطر أو المقنن، أو كما نقول: على التنوع في إطار الوحدة؛ حيث يكون علينا أن نبلور من المفاهيم الكبرى ما يمكنّنا من العمل المشترك والتعاون المخلص مع تمكين كل المشاركين من الاحتفاظ بخصوصياتهم ورؤاهم الخاصة تجاه العديد من المسائل على المستوى النظري والعملي.

التطابق ليس مطلبًا لأنه غير ممكن استمراره مدة طويلة، وإذا وجدناه ممكنًا كان دليلًا على تعطيل القوى العقلية والريادية لدى بعض أو معظم أولئك الذين يظهرون وكأنهم يصدرون عن رؤية تفصيلية واحدة، أو هو تعبير عن تسلط فئة من أهل الرأي والخبرة على غيرها. والتطابق ليس مطلوبًا لأنه سيعني إفقار الحياة الفكرية وتحويل من يمكن أن يشكلوا إضافة غنية إلى (إمَّعات) يردِّدون كلام الآخرين دون أن يتحسسوا ما لديهم من إمكانات العطاء المتنوع وإمكانات التغيير والتجديد والإصلاح.

وإذا تأملنا في التاريخ فإننا سنجد أن الاتفاق المصطنع يخفي وراءه مشكلات خلقية واجتماعية عديدة، ويؤدي إلى انحباس حركة الفكر، ولا يمر زمن طويل حتى يحدث الانتقام، وينفجر ذلك التوافق الظاهري، ليأتي على كل شيء، ويصير الناس إلى الفراغ والشقاق وكأنهم لم يتفقوا من قبل

على أي شيء؛ وحينئذ يكون تدارك الأمور في غاية المشقة، وقد يحتاج إلى عقود أو قرون وقد لا يكون ممكنًا أبدًا!

التنوع مطلوب واختلاف الرؤى والآراء سيظل شيئًا إيجابيًّا لكن ينبغي أن يظل على أرضية مشتركة محاطة بإطار من الثوابت العقدية والفكرية وقطعيات الشريعة ومبادئها العامة، وإلا تحولت التعددية إلى مصدر للتطاحن والحروب الباردة، وتفتت اللحمة الأهلية والوطنية، واستهلاك الطاقات في حياكة المكائد وشن حملات التشهير.

ولعلي أستجلي مسائل الاختلاف والاتفاق والتباعد والتقارب في الحروف الصغيرة الآتية:

١ - علينا أن نقول: إن إعمال العقول يؤدي دائمًا إلى إنتاج أفكار ورؤى متعددة، وذلك بسبب تنوع الخلفية الثقافية واختلاف سلسلة المعقولات لدى الناس، وبسبب تعدد زوايا النظر، وطرائق الفهم، وتباين المقدمات والمنطلقات التي يتم العمل العقلي على أساسها. ولنا أن نتأمل في تفاسير القرآن الكريم وشروح السنة؛ حيث عملت عقول كثيرة على توضيح نصوص الوحي والاستنباط منها، وحصلنا على ذلك التنوع الذي نعرفه، والذي ما زال قابلًا للاتساع والتشعب.

٢ - تعاقب الأيام والليالي، وتحول الأحوال، وتغير الظروف والمعطيات، يحدث مفارقات وتنوعات في رؤانا

ومفاهيمنا وأحكامنا وتقديراتنا مما يعني أننا سنعثر دائمًا على هوة تفصل بيننا: هوة بين زمان وزمان، ومكان ومكان، واتجاه واتجاه، وتخصص وتخصص، ومذهب ومذهب... ومسؤوليتنا أن ندرك بعمق حجم تلك الهوات الفاصلة، وأن نحاول ردمها أو مد الجسور فوقها حتى لا نشعر بالتمزق ونجد أنفسنا وكأننا ننتمي إلى عوالم مختلفة.

٣ - يعلمنا القرآن الكريم في مواضع عديدة كيف نتواصل عن طريق بلورة الأرضيات والقواعد المشتركة واستكشاف الأصول التي يمكن أن نتخذ منها منطلقات للتفاهم في أمور كثيرة؛ وهذا واضح في قوله - سبحانه -: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤] إنها دعوة لأهل الكتاب في أن يدخلوا مع المسلمين في التزام يتوجهون جميعًا من خلاله إلى إفراد اللَّه وحده بالعبادة ونبذ الشرك به وتحرير الناس من ربقة العبودية بعضهم لبعض والتظالم الاجتماعي، فلا ينقسمون إلى قسمين: أرباب وعبيد؛ بل يكونون جميعًا عبيدًا للَّه تعالى.

٤ - الهوّات كثيرة ومتنوعة، وكلما اتسعت الهوة الفاصلة احتجنا إلى البحث أكثر وأكثر عن الأمور المشتركة، ولكن يكون ما نحصل عليه في العادة ليس كبيرًا. وهكذا

فقد تتسع الهوة بين دولة ودولة بحيث لا يتم العثور على شيء يقرب بينهما سوى معاهدة عدم اعتداء أو معاهدة لتبادل المجرمين. وقد لا يجد شخص ما يجمعه مع شخص آخر سوى أن ينصت له، ويحاول سماعه حتى يفرغ من كلامه. وقد لا تجد جماعة للاقتراب من جماعة أخرى سوى أن تتعاهدا على التوقف عن التشهير والحرب الإعلامية. المهم دائمًا ألا نُصدر الأحكام السريعة، وألا نيأس من اكتشاف مساحات جديدة للاقتراب والتواؤم وتخفيف التوتر.

٥ - ردم الهوة يعني البحث عن المشترك. والذي يبحث عن المشترك هو الذي يمكن أن يعثر عليه. وهو الذي يكون قادرًا على بلورته من وجهة نظره الخاصة. إنه من ثمَّ يملأ فراغًا، وله الحق في أن يستفيد من ذلك الفراغ فيما يخدم وجهة نظره الخاصة.

إن ردم الهوات الثقافية والمعرفية يشبه عمل من يردم في البحر ليبني عليه، فكأن مساحات الاختلاف تشكل أرضًا مشاعة مباحة، ومن سبق إلى مباح فهو له. وإنما أقول هذا الكلام لأن الحق القطعي الصريح لا يكون ظاهرًا على نحو مستمر، كما أنه لا يحتل مساحات واسعة في البناء الثقافي والحضاري عامة، فما يقبل التأويل والتفسير والجدل والمراجعة والتداول هو الذي يحتل أوسع المساحات، ويثير أشد النزاعات وأكثرها إزعاجًا.

الذين يقومون بقراءة التراث وتأويله وتمحيصه ونقده هم الذين يردمون الهوة بين القديم والجديد، فإذا كانوا من أنصار التراث والمعتزين به فإنهم سيصيرون إلى توكيد أهمية التراث في حياتنا المعاصرة وجعله حاضرًا وضاغطًا. وإذا كانوا حداثيين فإنهم سوف يبرزون معائب ذلك التراث، ويقللون من شأنه في البناء الحضاري القائم والمستقبلي. وقل مثل هذا في العلاقة بين الشرق والغرب والحكومات والشعوب والروحي والمادي، وما يليق وما لا يليق... الذين يتجاهلون الفراغات ووجوه الاختلاف، ويقفزون فوقها سيخسرون؛ لأن خصومهم سوف يعملون على ملء تلك الفراغات، ويستخدمونها بالتالي ضدهم؛ لأن الهوّات الثقافية كثيرًا ما تكون موضع جدل، وحين يملؤها طرف من الأطراف، فإنه يخلخل صفوف الطرف المناوئ ويستميل أعدادًا منه إلى وجهة نظره، حيث تبدو الأمور وكأنه استطاع حسم النزاع لصالحه. وهذا واضح جدًّا في العلاقة الثقافية بين الشرق والغرب؛ فالأعداد الهائلة من الباحثين والمستشرقين في مراكز البحوث في الغرب جعلته أقدر على حصر خصومه في الزاوية الضيقة من خلال المعلومات والإحصاءات والنماذج والتحليلات والطروحات...

٦ - على كل واحد منّا - على المستوى الفكري - ألا يستهين بحجم القصور والوهم والزيغ الذي يمكن أن

يكون لديه، كما أن عليه أيضًا ألا يستهين بما يمكن أن يكون لدى مخالفيه من أفكار نيرة ومفاهيم جيدة. وقد علمتنا الخبرة والتجربة أن الوثوقية الزائدة بما يملكه المرء من فكر، تعدُّ بابًا من أبواب الشر. وكم عَدَلْنَا عن أفكار كنا ننظر إليها في يوم من الأيام على أنها تشكل للأمة سفينة نوح أيام الطوفان، وكم نتقبل اليوم من أفكار كنا نظن أن تطبيقها سوف يؤدي إلى كارثة محتمة. وقد كان أئمتنا على وعي عميق بهذا حين قالوا: « مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب ». حيث هناك دائمًا خط للرجعة وباب للتحول والتغير.

حين نجتهد في أمور الإصلاح وقضايا التنمية والعلاقات الدولية، فإن مجال الاختلاف والتنوع يكون أكثر رحابة؛ فقد أرى رأيًا، وترى أنت رأيًا آخر، ولا يكون الصواب لا معي ولا معك، وإنما مع شخص ثالث أو رابع أو خامس... ولهذا فإن من الجائز أن أقول في هذا الشأن: مذهبي صواب يحتمل الخطأ، ومذهبك أيضًا صواب يحتمل الخطأ. وقد نقيم على خلافٍ دهرًا دون أن نجد سبيلًا لترجيح وجهة نظر على أخرى؛ فالحق لا يسفر دائمًا عن وجهه باليسر الذي نتمناه.

٧ – من المؤسف أن التركيب العام للعقل البشري يدفعه دفعًا إلى أن يكون أكثر قدرة على رؤية السلبيات منه على الإيجابيات، ويتبع هذا أننا نرى وجوه الخلاف التي تفرّق

بيننا أكثر من رؤيتنا للروابط وأوجه الاتفاق التي توحّدنا. وكثيرًا ما نكون متفقين في (٩٥٪) من رؤانا وطروحاتنا، لكن ذلك لا يستوقفنا، ولا نفطن إليه، فتتفرق كلمتنا، وتتصدع صفوفنا من أجل الـ (٥٪)! نحن كثيرًا ما نرسم لوحة لماعة ومكتملة لما ينبغي أن يكون عليه الحق والخير والجمال، ثم نبدأ بمحاكمة الناس إليها. وكثيرًا ما نستوحي من الماضي السحيق صورة للرجل والمجتمع المثالي والدولة المثالية، ثم نحاول أن ننحت كل ما أمامنا ليكون على قدها ومثالها غير آبهين بإمكانية حدوث ذلك، وغير آبهين بالأخطاء المنهجية التي يمكن أن نقع فيها خلال تلك العملية. ونحن نجد صعوبة بالغة في إدارة حوار مثمر وفي رؤية الأشياء من منظور مغاير؛ لأننا لا نرى في لمِّ شتات الآراء في نسق جامع أمرًا يستحق العناء!

أفهم من قول الله ﷻ : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٢] تشجيعًا على البحث عن المشترك والاعتداد به والتوقف عنده؛ فالظالمون لأنفسهم والمقتصدون والسابقون بالخيرات كل أولئك نالوا كرامة (الاصطفاء) على ما بينهم من تفاوت وتباين. وبدأ – سبحانه – بذكر الظالم لنفسه؛ لأن عيون الصالحين تتجه إليه بالنبذ والإقصاء.

٨ - على مدار التاريخ كان من مهام العقول الكبيرة القيام بعمل جليل هو دمج الماضي في الحاضر والعمل على المتحصل من ذلك الدمج من أجل المستقبل. وهذا ما فعله الإصلاحيون والمجددون في كل زمان ومكان. من السهل أن نعيش على منجزات الماضي، ونغرق في عطاءاته، ومن السهل أيضًا أن نجحدها، وكأنها لا تعني أي شيء، لكن الذي يتطلب الذكاء والمثابرة والجهد الفائق هو تجسير العلاقة بين الماضي والحاضر، فلا يكون واقعنا عبارة عن علامة استهزاء بماضينا، ولا اجترارًا له، وإنما يكون تطويرًا لخير فيه؛ لأننا نعرف بدقة كيف نترك للماضي المنصرم الرماد، وكيف ننقل من إنجازات السلف الشعلة المتوهجة التي تضيء لنا الطريق.

وقد مضت سنة الله - جلَّ وعلا - في ألا تتسع مرحلة سابقة في تنظيماتها وأساليبها وأدواتها وترتيباتها لمرحلة لاحقة؛ فحياتنا في حالة من الاتساع الدائم، وحتى نرشِّد ذلك الاتساع لا بدَّ لنا من أن نجتهد كما اجتهد أسلافنا حين وجدوا أن ما ورثوه عن أسلافهم غير كافٍ لتشييد البناء الحضاري، وتقنين السلوك البشري. وإلى جانب الاجتهاد نقتبس من الماضي كما نقتبس من الآخر، لكننا في الوقت نفسه نعتقد أنه ليس لدى الآباء كما أنه ليس لدى الآخر الحلول الجاهزة لمشكلاتنا وتأزماتنا؛ فالتجارب الكبرى لا تنقل من زمان إلى زمان ولا من مكان إلى مكان، لكن

أولي البصائر والخبرات المرموقة يظلون قادرين على الاستفادة منها في أكثر من مجال وعلى أكثر من مستوى.

٩ - علينا أن نتساءل: لماذا لا نساعد الآخرين على فهم أنفسنا وأحوالنا، فنرسي تقاليد ثقافية يكون من شأنها تشجيع الآخرين على أن يساعدونا على فهمهم؟

في ثقافتنا السائدة ميل شديد إلى أن يظهر الناس بمستوى من الثقة بالنفس وبالفكرة والجماعة أعلى مما عليه واقع الأمر. وفي ثقافتنا ميل قوي إلى التكتم على الأخطاء وستر العيوب. وثقافة الاعتراف بالقصور والتقصير لدينا ضعيفة أو شبه معدومة. فليس لدينا إلا الأتقياء والأبطال وأصحاب الانتصارات الباذخة والنجاحات الكبرى! ومن أندر النادر أن يتحدث عالم عن المشكلات التي لم يستطع حلها، والأجوبة التي لم يهتد إليها. كما أن من أندر النادر أن تصدر حكومة أو جماعة أو حزب أو مؤسسة كتابًا تتحدث فيه عن الأخطاء التي وقعت فيها، وعن التطورات والتعديلات التي قصرت في إدخالها والأخذ بها؛ حيث لا وقت عند أحد للحديث عن مثل هذه الأمور!!

هذا كله جعل الغموض يخيّم على أمور كثيرة في حياتنا، فنصير إلى الاتهام والظن وتداول الشائعات. إن من أهم وسائل إقامة جسور التفاهم والتواصل الثقافي والاجتماعي أن نشعر بأن تجاربنا الدعوية والإصلاحية

والحضارية كافة ليست ملكًا حصريًّا لنا؛ لأننا لسنا وحدنا الذين دفعنا ثمنها، فقد أسهم كثيرون في دفع ثمن تلك التجارب، وتحملوا نتائج إخفاقاتها، وكانت في بعض الأحيان مؤلمة ومكلفة ومضنية...

الوضوح والشفافية والإعلان عن الطرق المسدودة التي سلكناها شيء مهم في تحسين مستوى الفهم ومستوى التصافي والتعاون، وآمل أننا قد بدأنا ندرك مثل هذه المعاني.

١٠ - وعينا بأنفسنا فرع من الوعي بالآخر المنافس والمعادي، وليس في هذا الكلام أي قدر من المبالغة، فشؤون البشرية أشبه بمنظومة عددية، فكما أن الرقم (٥) مثلًا ليس له أي معنى لولا أن قبله الرقم (٤) وبعده الرقم (٦)، فكذلك إنجازاتنا وأوضاعنا ومشكلاتنا لا يظهر حجمها ووزنها ووقعها إلا من خلال النظر إليها على أنها جزء من هيكلية عالمية عامة. والحقيقة أن الآخر ليس فقط مصدرًا لتحسين وعينا بأنفسنا ولكنه كثيرًا ما يكون الجهة التي تملك الكثير من الحلول التي نحتاج إليها.

الغرب بالنسبة إلينا يشكل مشكلة؛ فهو يمارس نفوذًا متصاعدًا علينا، وحضارته تضغط على قيمنا ومفاهيمنا ورمزياتنا، وله مصالحه التي كثيرًا ما تجافي مصالحنا، لكنه إلى جانب ذلك يعد جزءًا من الحل للعديد من أزماتنا المستعصية، فنحن تعلَّمنا منه - كما تعلَّم منا في الماضي -

الكثير في مجالات التنظيم والصناعة والإبداع والتقنية، وما زال لديه الكثير من الأشياء التي نحتاج إليها.

ولا يخلو الغرب من بعض العلماء والحكماء الذين يعتقدون أن الإسلام كما يشكل بالنسبة إليهم تحديًا حضاريًّا وأحيانًا خطرًا متأهبًا، فإنه يملك مخزونًا حضاريًّا وفكريًّا قيّمًا يمكن للغرب ولغيره أن يقتبس من نوره.

إذا تمكنا من أن نكوّن هذا الإحساس فإن مد جسور التواصل مع الآخرين لن يشكل عبئًا علينا، وإنما سيشكل فرصة للارتقاء بالذات.

١١ - سيكون من المهم أن نعي أنه ليس المطلوب أن نشعر أننا تقاربنا واتفقنا وتبادلنا عبارات الثناء والإعجاب، فهذه أمور كثيرًا ما تكون شكلية. المطلوب ليس تحقيق الإجماع أي إجماع وإنما التحقق من صواب ما نجمع عليه، ولهذا فإن جسور التفاهم وردم الهوات والوعي بالحاجة إلى الآخرين لا ينبغي أن تكون على حساب الوضوح والثبات على المبادئ والتمسك بالثوابت؛ لأن اللقاء على التنازل عن الأسس والمنطلقات الكبرى يفرّغ أي اتفاق من مضمونه الحقيقي؛ فمهمة الثوابت والأصول أن تظل صلبة ومستمرة لأنها لا تؤدي وظائفها في التوجيه وصياغة الحياة إذا لم تكن كذلك. ومن هنا فإني أعتقد أنه لا مجال للمساومة على الثوابت ولا مجال لليّ أعناق النصوص وتسويغ الأخطاء

والسكوت عن الانحرافات وعقد الصفقات الفكرية والتنازلات المشتركة والمتبادلة.

إن الهوامش التي تسمح لنا بالحركة الصحيحة هوامش متسعة جدًّا ولم يستنفدها أي طرف بعد، أو يقارب ذلك، لكن ارتباك الوعي وضعف الخبرات بمتطلبات الحركة الاجتماعية وضعف معرفتنا بسنن اللَّه - جلَّ وعلا - في الأنفس والمجتمعات - تؤدي إلى أن نجاهد في غير عدو، ونسبح في غير ماء، ونجفل من غير شيء.

* * *

الكرامة الجريحة

نحن أهل كرامة جريحة، وهذا الشعور بذلك يأتينا من مصدرين:

من التاريخ أولاً؛ إذ إننا أمة ظلت صاحبة حضارة مهيمنة مدة لا تقل عن سبعة قرون، واستمرت إشعاعات عطاءاتها ثلاثة قرون إضافية. ويزيد في إحساسنا بالإهانة أننا في منتصف القرن الرابع عشر الهجري واجهنا بوصفنا أمة ذات منهج ورسالة تيارات عديدة، يرمي جميعها إلى طمس هذا المعنى وجعل وعي الأمة ينفتح على معان وطنية وإقليمية وقومية وعلمانية... بوصفها بديلاً عن الانفتاح على أخص خصائصنا، وهو العبودية لله - تعالى - والاحتكام إلى الشريعة في الشؤون العامة والخاصة.

وفي مواجهة هذا الاستلاب اجتهد المثقفون والغيورون في تلك المرحلة - وكانوا فيما ذهبوا إليه على صواب إلى حد بعيد - في كيفية مواجهة ذلك، وانتهوا إلى قرار بالذهاب إلى التاريخ على اعتبار أنه الذاكرة الحضارية للأمة والخزان الأساسي لأمجادها وبطولاتها. ونذكر كيف نشطت في تلك المرحلة الكتب التي تتحدث عن العبقريات وعن سير الرجال العظماء والنماذج التاريخية الفذة والمعارك

المظفرة والإنجازات العلمية الباهرة؛ بالإضافة إلى بلورة شيء من حكمة التشريع وكون الإسلام لا يتناقض مع العلم... وأسدل الستار - على نحوٍ شبه تام - على كل الألوان الرمادية والباهتة التي كانت جزءًا من ألوان ذلك التاريخ، كما تم الإعراض عن الحديث عن الأسباب التي أدت إلى توقف الحضارة الإسلامية عن العطاء؛ لأن الكشف عنها في تلك المرحلة كان سيؤدي إلى الإحباط، ويجعل الناس شبه مجردين من أسلحة المقاومة للتيارات التي أشرت إليها.

وقد أدت تلك القراءات المبتسرة والجزئية دورها بكفاءة واقتدار في إنقاذ الذات المسلمة والثقافة الإسلامية من هزيمة نكراء. وهكذا فقد ترسخ في وعي الأجيال الحاضرة وفي حسِّها مشاعر عميقة بالظلم الذي يلحقه بنا الآخرون اليوم وبالهوان؛ إذ خسرنا معظم الإنجازات التي كنا نفاخر بها في الأيام الخالية.

وأعتقد أن شيئًا من العلاج لهذا سيكون في إعادة قراءة التاريخ على نحو متوازن وبمنهجية سببية واستقصائية ذكية ومتقنة.

المصدر الثاني لإحساسنا بجرح كرامتنا هو الواقع الذي نعيشه، فنحن أمة تملك أفضل منهج - على مستوى الأصول والأسس والمنطلقات الكبرى على الأقل - لإصلاح العالم، لكننا نعيش في أوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية عليلة ومتخلفة عن المنهج الذي نؤمن به وعن متوسط السائد

من كثير من أوضاع عصرنا، ونحتاج إلى الكثير من الفكر والعمل والجهد حتى نتجاوز هذه الأوضاع.

المسلم اليوم يشعر أولًا أنه يعيش على هامش الحضارة حيث إننا دخلناها من باب الاستهلاك والتمتع ليس أكثر، وينقضي عصر صناعي بعد عصر دون أن نلج أيًّا منها، ومعظم الدول الإسلامية ما زال ما لديها من إمكانات صناعية وتقنية أقل مما كان متوافرًا لدى أوروبا في القرن التاسع عشر. ويشعر المسلم من وجه آخر أنه غير قادر على حماية أرضه وحقوقه وغير قادر لا على تفادي الصفعة التي يوجهها الآخرون إليه ولا على ردها؛ بل يشعر أحيانًا أنه غير قادر على الشكوى من الألم الذي يشعر به، أو غير قادر على جعل تلك الشكوى مسموعة لتكون ذات معنى!!

وهكذا فالإحساس المتضخم بالأمجاد الغابرة جعل إحساسنا بالإهانة التي نتلقاها - وهي أشكال وألوان - شديدًا ومتفجرًا لكنه مبهم وغامض؛ حيث لا تعرف الأكثرية الصامتة من هذه الأمة أي تحديدات لأسباب ما نحن فيه على نحو منطقي فضلًا عن أن تعرف سبل الخلاص منه.

وأودُّ هنا أن أبدي الملحوظتين التاليتين:

١ - شيء أساسي أن نشعر بالإهانة والدونية لأننا إذا فقدنا هذا الإحساس فإن ذلك يعني خللًا بنيويًّا في رؤيتنا لأنفسنا وللواقع وللعالم من حولنا. وبعض المسلمين حصل

على مواقع اجتماعية أو اقتصادية جيدة، فهو مغتبط بالتمتع بثمرات الحضارة وعقد الصفقات وحصد المزيد من المنافع. وينظر إلى الذين يشكون من سوء الأحوال نظرة استغراب؛ فالأمور تمضي على أحسن ما يرام، وأن يكون بينك وبين الغرب سبب أو تواصل ما فهذا يعني انفتاح أبواب إضافية للنعيم والنجاح.

هذه الفئة من المسلمين ضعف لديها الإحساس الجماعي إلى حد التلاشي، وهي تشعر في أعماقها بالدونية، لكنها تجد دائمًا ما يوجه وعيها نحو همومها ومكاسبها الشخصية. وهذه الفئة - في ظل موجات اللَّهو والمتعة والأنانية التي تبعث بها العولمة - مرشحة للاتساع. ولا ندري كيف سيكون الحال بعد عشر سنوات من الآن؟!

٢ - من المهم أن نتخذ من كرامتنا الجريحة محفزًا على المقاومة واكتساب المنعة والارتقاء والفكاك من أسر التخلف لا أن نجعل منها منهجًا للعمل. وهذه القضية لا تخلو من شيء من الدقة، وتحتاج إلى شيء من التوضيح.

حين يشتعل إحساسنا بالهوان، ونستجيب في توجهاتنا واستخدام الإمكانات التي لدينا لتلك الأحاسيس والمشاعر على نحو بدائي ومتسرع - ووفق رؤية جزئية ومبتسرة - فإننا نكون آنذاك غير مؤهلين لمداواة الكرامة المجروحة ولا استرجاع الحقوق المسلوبة؛ بل إن الاستجابة على هذا

النحو ستجعل جروحنا تزداد تقرحًا، وتجعل حقوقنا أكثر تعرضًا للاغتصاب والنهب. ولنا فيما جرى خلال العامين الماضيين من المضايقة والتحجيم للدعوة الإسلامية والمحاربة للمؤسسات الخيرية والمطاردة للدعاة... عبرة إن كنا قادرين على الاعتبار! وأي شيء أسوأ من أن يصبح ذكر الإسلام والمسلمين شيئًا يثير مشاعر الخوف والاشمئزاز لدى كثيرين من أبناء أمريكا وأوروبا وغيرها؟!

إن أمريكا أحسَّت بجرح عميق في كبريائها حين تعرضت رموزها الاقتصادية والعسكرية للهجوم، وردت على ذلك الجرح الغائر في كرامتها باتخاذه منهجًا للرد، فقابلت الصفعة بصفعات في أماكن عدة من العالم، وما زالت مستمرة في ذلك إلى هذه اللحظة، فماذا جرى؟

إنها تنتقم من بعض خصومها على نحو ساحق، لكنها لن تستطيع أن تحول دون تكرار ذلك الهجوم عليها مرة أخرى؛ لأنها لم تستطع التوقف لقراءة الأسباب الجوهرية التي أدت إلى الهجوم عليها.

إنها تربح معركة هنا ومعركة هناك إلا أنها تخسر جاذبيتها الحضارية من خلال عدوانها على النموذج الذي كانت تقدمه للعالم، وتخسر مع كل ذلك الانسجام الداخلي مع القيم التي تروج لها.

وهذا ما علينا أن نستفيد منه على نحو جيد.

أما إذا اتخذنا من جرح الكرامة وكؤوس الإهانة حافزًا على الخلاص فإن سلوكنا آنذاك سيكون مختلفًا. وأتصور أننا آنذاك سنفكر ونتصرف على النحو الآتي:

• إن حالة ارتباك الوعي التي نعاني منها ليست جديدة، ولم تتكون في مرحلة واحدة، وجرحنا الغائر لم يحدث بسبب ما فعله ويفعله بنا الغرب، وإنما بدأ الأمر قبل ذلك بقرون عدة. وحين انفرط عقد الدولة العباسية لم يكن ذلك بسبب غرب أو شرق، وإنما بسبب الانحراف عن المنهج الرباني الأقوم الذي أكرمنا اللّه به، وبسبب عدم القدرة على التجدد وحل المشكلات المتأسنة. ولهذا فإن ما نلقاه اليوم من ازدراء لا يعود إلى أحوال هذا الجيل وإنما بسبب الوضعية العامة للأمة، وهي وضعية صنعتها أخطاء وخطايا القرون.

• كما أن على أمريكا أن تسأل بصدق واهتمام: لماذا يكرهها الآخرون؟ ولماذا يكون هناك شباب في عمر الورود مستعدين للموت من أجل إلحاق الأذى بها فإن علينا أيضًا أن نسأل: لماذا يجري كل هذا لنا؟ ولماذا نحن عاجزون عن الدفاع عن أنفسنا؟ ولماذا لا نساهم في توجيه الحضارة الحالية، ولا نؤثر في موازين القوى فيها؟

• إذا نحن تصرفنا ضد أعدائنا وضد أولئك الذين يوقعون الظلم علينا بعين الأسلوب الذي يستخدمونه معنا، فما الميزة التي تجعلنا أكثر أهلية لوضع أسس لحضارة جديدة

ومختلفة عن الحضارة السائدة؟.

إننا في حاجة إلى أن نعمل على المدى الطويل حتى نكون في وضعية لا يفكر معها أحد في إهانتنا والعدوان علينا؛ لأن ذلك سيكون بالنسبة إليه مكلفًا جدًّا. والأرقى من ذلك أن يحترمنا الآخرون للقيم والمنجزات التي لدينا، فينشغلون بكيفية الاقتباس والتعلم منا بدل الانشغال بإيذائنا وظلمنا. والأرقى من هذا وذاك أن نفكر وندعو ونعمل على تحويل أعدائنا إلى أولياء يدخلون في ديننا، وينشرون مبادئنا وقيمنا. وهذا ما قام به المسلمون الأوائل حين انتهوا من مشكلة الآخر الوثني في جنوب شرق آسيا عن طريق نشر الإسلام وجذب الناس إليه. وإن الغرب - على المستوى الشعبي - ينتظر منا هذا الأداء، وهو في أمسِّ الحاجة إليه.

وأنا هنا لا أرمي إلى تمييع الأمور ولا إلى إخماد روح المقاومة، لكنني أريد لأعمالنا وجهودنا أن تكون في السياق المنتج، وأن تعبر قبل ذلك عن رؤيتنا الكونية للعالم، وليس عن انفعالاتنا ومشاعرنا.

• الصراع بيننا وبين أولئك الذين يجرحون كرامتنا ليس صراعًا عسكريًّا، ولا يمكن للقوة اليوم أن تحسم أي قضية على نحو نهائي. وإن أي نصر عسكري سيكون مؤقتًا ومجوَّفًا إذا لم يرتكز على تفوق حضاري. وإن شروط الاحترام ونوعية الرد المطلوب على الإهانة لا تستمد من

أدبيات حقبة تاريخية ماضية، ولا يضعها الناس بحسب أهوائهم وأمزجتهم، ولا بحسب معتقداتهم ومبادئهم، وإنما يصوغ ذلك ويحدده أولئك الذين يضعون بصماتهم على الحضارة الراهنة، مهما كانت هذه الحضارة ضالة أو ناقصة أو خاوية. وهذه نقطة جوهرية.

• إن كرامتنا لم تمتهن بسبب استلاب حقوقنا أو نهب ثرواتنا فحسب، وإنما هناك أمور أخرى لا تقل أهمية؛ فالتخلف الذي يخيم على العديد من جوانب حياتنا أوجد ندوبًا ناتئة في نفس كل مسلم؛ حيث صار هناك ما يشبه الاعتقاد بأننا غير مؤهلين لإنتاج التقنيات المتقدمة ولا لتصميم النظم المعقدة. وإن كثيرًا من العمال المسلمين في الغرب لا يجدون فرصًا لكسب أرزاقهم إلا في الأعمال الوضيعة أو الشاقة أو غير المجزية والتي يترفع عنها كثير من أهالي تلك البلاد! وإن مسلم اليوم يشعر أن الأمة عالة على الأمم الأخرى في كل شيء حتى طباعة المصاحف وتشييد المآذن! وإن النقلة النوعية في التقنية والصناعة وحدها هي التي تجعل المسلم يشعر بأنه لا يعيش على هامش العصر، كما أنه ليس محرومًا من الذكاء ولا المواهب التي يقر للآخرين بامتلاكها.

• سيظل من المهم دائمًا أن ندرك أن علاقتنا بالأعداء والمنافسين والأغيار ستظل فرعًا عن الوضعية العامة التي نؤسسها في بلادنا، وإن العلاقات الدولية أشبه بسوق يعرض

الناس فيه بضائعهم، ويأخذون منه على مقدار ما في جيوبهم، ولن نستطيع أن ندافع عن حقوقنا ولا أن نرسخ وجودنا على الصعيد العالمي عن طريق (الفهلوة) والادعاء والشعارات، فهامش المناورة أمامنا ضيق جدًّا؛ وإن الناس يحبون أن يروا فلنجعلهم يرون إذا ما كنا نريد لموقعنا العالمي أن يتحسَّن.

● علينا أن ندرك على وجه جيد نقطة الضعف الأساسية في علاقتنا مع الآخرين؛ لأننا من غير إدراكها سنكون كمن يصرخ في واد، أو ينفخ في رماد. وأظن أن تلك النقطة لا تتجسد في نقص إمكاناتنا وقدراتنا - مع أنها محدودة - وإنما في تكبيل إرادتنا، لأن أصحاب الإرادة المسلوبة يظلون يشعرون بالعجز والانهزام مهما كانت قوة الأوراق التي بين أيديهم.

إن تحرير الإرادة من الخوف والتبعية والاستخذاء أمام الأجنبي سيظل شرطًا جوهريًّا لتحريك إمكاناتنا في الاتجاه الصحيح وشرطًا جوهريًّا لاتخاذ قرارات تاريخية ومصيرية.

* * *

كَيْفَ؟؟ مصدر هموم

شيء مهم أن نعرف ماذا نقول، وأن نعرف ماذا نريد، لأن كثيرًا من الناس لا يعرفون ما الصواب الذي عليهم أن يتحدثوا عنه، ولا الأشياء التي يريدون لها أن تتحقق. وأعتقد أن المفكر الذي تعود التفكير والتنظير والتعليل تنتهي مهمته عندما يشعر أنه وضع النقاط على الحروف فيما يحب أن يجلوه من مسائل. وقل نحو ذلك في الداعية الذي جعل شعاره في التبليغ (قل كلمتك وامش) فإنه يقنع بقول ما يود قوله. والأمة بحاجة إلى هذا وذاك.

لكن الإصلاح يتطلب في الحقيقة ما هو أكثر من ذلك: إنه يتطلب توافر الشروط والنظم والقوانين والأساليب والظروف التي تساعد الناس بطريقة أو بأخرى على الاستقامة وعلى الاستجابة لنداءات الدعاة وتوجيهات المربين ومناشدات المخلصين... توافر الأمور التي ذكرناها يعني توافر (بيئة صالحة) بأوسع ما تحمله هذه الكلمة من دلالات.

دعونا نقول: إنه على مدار التاريخ كان لدينا نقص مريع في التنظير للبرامج والكيفيات والوضعيات والأطر التي تجعلنا ننتقل من مرحلة الكلام إلى مرحلة العمل؛ في الوقت الذي نشكو فيه من فائض في القول: عما يجب فعله، وعما يجب

تركه والإقلاع عنه. وربما كان ذلك بسبب تأثير بعض المفاهيم الجاهلية والفلسفة اليونانية؛ حيث الجنوح إلى الحلول النظرية وكراهة الانهماك في التقنيات وفي الأعمال اليدوية التنفيذية. وقد تركت هذه الوضعية أسوأ الآثار في قدرتنا على التخطيط للبرامج العملية وفي رصيدنا من الأطر والشروط التي تحوِّل الكلام إلى خطوط حركة يومية! وكم رأينا من الدعاة الذين ينتزعون الإعجاب عندما يتحدثون عن القيم والمبادئ والآمال والجراحات لكن سرعان ما يفقدون كل ذلك عندما يقال لهم: كيف يمكن تحويل هذه الأفكار الجميلة إلى واقع معيش!

السؤال عن (كيف) يشكِّل مصدر همٍّ وقلق وإثارة للكبار الذين انتهوا من تحديد ملامح الوضعية التي يجب أن تكون فيها الأمة، وباتوا يشعرون بضرورة الانتقال إلى إيجاد الآليات والوسائل التي تساعد الناس على الارتقاء نحو الوضعية المنشودة.

المصلحون المدركون لتكاليف ذلك ومشاقه لا يكفُّون عن طريق الأسئلة ومحاولة الإجابة عليها، ومن تلك الأسئلة:

- كيف نستطيع أن نحول دون استثمار التفوق المعنوي والمادي بطرق غير مشروعة؟

- كيف يمكن أن نجمع بين مستوى جيد من الحرية الفردية والعدالة الاجتماعية؟

• كيف نستطيع جعل الناس يبصرون الخط الضيِّق الذي يفصل بين النجاح واللصوصية، والخط الفاصل بين الزهد والعجز والعيش على هامش المجتمع، والخط الفاصل بين القوة والثقة بالنفس والبغي والأنانية...؟

• كيف نستطيع أن نستفيد من تقدم الغرب دون أن نغرق في ثقافته؟

• كيف نستطيع تحقيق معنى الأمة الواحدة في ظل العولمة؛ حيث السعي إلى تمزيق كل الروابط التي تقوم على العقيدة؟

• كيف يمكن أن نوجه النقد إلى بعض إنجازاتنا التاريخية دون أن نشعر بالاغتراب وتشتت الجذور؟

• كيف يمكن للخطاب الدعوي أن يجمع بين الجاذبية والالتزام؟

• كيف يمكن الحفاظ على التألُّق الروحي في ظل حياة مترفة؟

• كيف يمكن أن نضبط مقادير الضغط الاجتماعي على نحو لا يؤدي إلى شيوع النفاق والفساد الداخلي؟

إن التساؤل حول هذه الأمور هو بداية لا بدَّ منها لتطوير حساسيتنا نحوها. ومهما ظننَّا أن الأجوبة والسبل العملية التي نكتشفها جيدة وموائمة فإن التطبيق وحده هو المحك

الذي يكشف عن مدى صوابها ونجاعتها وإن كل حل عملي وكل إطار تطبيقي يمكن أن يفقد مع الأيام فاعليته واتزانه، ويصبح في حاجة إلى تعديل واتزان جديد، وذلك لأن العناصر المشكِّلة للبيئة في حالة من التغير الدائم، مما يجعل الحلول والأطر المقترحة لا تحتفظ بملاءمتها.

لنحاول الخلاص من التلهي بشرح ما بات معروفًا للصغير والكبير، والصيرورة إلى تحويله إلى شيء ملموس، يسعد الناس بالعيش في ظلاله.

* * *

شيء شخصي

ليس هناك من شك في أننا نعيش في ظل حضارة تمارس أكبر عملية تنميط للأذواق والرغبات والأفكار والرؤى والمفاهيم على نحو مستبدٍّ وطاغٍ، من أجل تعبيد الطريق أمام الإنتاج العظيم والتسويق الكبير ومن أجل إزاحة كل الخصوصيات والتنوعات الدينية والعرقية التي تعوق حركة العولمة.

في ظل الحضارة الحديثة يتم نشر الشروط الموضوعية المطلوبة للحياة الطيبة؛ ومعظم تلك الشروط - إن لم نقل جميعها - لا يتحقق من غير المال. وبما أن المعروض منه دائمًا دون ما هو مطلوب. فقد اشتعلت منافسة ضارية من أجل الحصول عليه. والمنافسة الحامية تتصل على نحوٍ ما بشكلٍ من أشكال انحطاط المدنية.

وبما أن الحضارة المعاصرة رسَّخت في وعي الناس أن المال هو كل شيء فقد صارت كل طرق تحقيق الذات تمرُّ عبر امتلاك أكبر قدر ممكن منه. ومن شدة تعمق هذا الفهم صار كثير من الناس مستعدين لعمل أي شيء من أجل المزيد من الاستحواذ عليه إلى درجة أن صار الهامش الفاصل بين النجاح على الصعيد المالي وبين اللصوصية ضيقًا لا يكاد يرى! الحضارة الحديثة تؤكد أيضًا على الحقائق بوصفها

الأساس الذي يقوم عليه كل تطوير وكل مراجعة، وتهمل مسألة (القيم) وما يمكن أن يكون لها من دور إرشادي في استخدام الحقائق وتوجيه السلوك.

وهي مرة ثالثة تؤكد على العلم بوصفه حقائق تم اختيارها، وأثبتت صلاحيتها في بناء التقدم، في الوقت الذي أهملت فيه دور (الحكمة) بوصفها شيئًا خاصًّا وخيارًا شخصيًّا؛ ولهذا فقد صار لدينا اليوم عدد كبير من العلماء وعدد قليل من الحكماء!

وأخيرًا فإن الحضارة الحديثة تروِّج لثقافة الصورة وثقافة الشكل، وأخذ يستقر في أذهان الناس شيئًا فشيئًا أن الرجل السعيد هو دائمًا شاب، والمرأة السعيدة هي دائمًا جميلة، ويتم غض الطرف عن كل موروث البشرية الذي يؤكد على دور الفضيلة والإيثار والتقوى والقناعة والثبات على المبدأ في الحياة الهانئة واللياقة الاجتماعية! من الواضح في ضوء كل هذا أن على الذين يرغبون في إعادة الأمور إلى نصابها أن يعيدوا اكتشاف هذا المهمل والمهمَّش والمسكوت عنه، أي القيم والحكمة والجوهر وتوجيه الإدراك نحو تلمس موارد غير مادية للأمن والسعادة والطمأنينة والنهوض.

وأود هنا أن أركز على نقطة هي أن في إمكاننا من خلال رؤية مغايرة لبعض الأشياء وتفسير بعض الأحداث على نحو يستجيب للرؤية الإسلامية للحياة - أن نخفف من الطلب

على المال والشهرة والنفوذ بوصفها أدوات لتحقيق الوجود المعنوي، والمادي وأن نخفف من وطأة منغصات الحياة أيضًا.

وليس في هذا أي قفز على الشروط الموضوعية للحياة السويَّة ولا أي تجاوز للحقائق الثابتة؛ بل إنه على العكس من ذلك يشكل التصاقًا بالحقائق الأشد عمقًا والأقوى رسوخًا.

إن العالم ليس إلا ما نراه، وإن جوهر الأحداث يكمن في تفسيرنا لها وفي تحديدنا لعلاقتها بنا، وإن للحقيقة الواحدة عشرين ظلًّا، ورسم تلك الظلال من شأننا نحن بني آدم. وكما يتم تلوين السائل بلون الإناء الذي نضعه فيه كذلك يمكن أن نتفاعل مع الأشياء وفق الظلال التي نرسمها لها والأصداء التي نصنعها.

يساعد في هذا أن عالمنا الداخلي لا يتأثر بالشروط الموضوعية الخارجية ولا بالحقائق الملموسة فحسب؛ فالأوهام والأحلام والذكريات والمخاوف والأمنيات والخيالات تؤثر في ذلك العالم على نحو قد يكون أشد وأعمق من تأثير الحقائق الصلبة. وحين يقول إنسان: إنه سعيد، فينبغي أن نصدقه، ويجب عليه هو ألا يتساءل عن أسباب سعادته. وليست الدعوة إلى توجيه الإدراك شيئًا جديدًا نبتدعه، فهناك نصوص وآثار وأقوال تؤكد على نجاعة هذا الأمر ومشروعيته، وهناك ممارسة يومية له من كثير من الناس. لنتأمل في قوله – سبحانه –: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن

تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦].

وقوله سبحانه: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩].

إنها دعوة إلى عدم الحكم على الأمور بناء على عواطفنا وعلى ما يلوح لنا من ظواهرها أو بداياتها؛ لأن ذلك ينطوي على العجلة والسطحية؛ فمعرفة مآلات الأشياء تحتاج إلى علم مطلق، وهو غير متاح لنا، ولهذا فإن على المسلم ألا يغالي في حب الأشياء وكرهها لأنه لا يعرف كيف ستكون عليه الحال في النهاية.

وكان أبو بكر ﷺ يقول: لا تغبطوا الأحياء إلا على ما تغبطون عليه الأموات. فما دمنا نحن وما نملك شيئًا عابرًا في هذه الدنيا فإن ما يستحق الغبطة فعلاً هو ما يذهب معنا وليس ما يبقى هنا، وهو شيء وحيد لا أشياء، إنه باختصار العمل الصالح. إن المرء من خلال توجيه إدراكه يستطيع أن يستخرج من عمق الأزمة والمصيبة شيئًا يستدعي الحمد والشعور بالرضا، كما كان يفعل عمر بن الخطاب ﷺ حيث عبَّر عن ذلك بقوله: « ما أُصبت بمصيبة إلا تذكرت فيها ثلاثة أمور: أنها لم تكن في ديني، ولم تكن أكبر مما هي عليه، وذكرت مثوبة اللّه فيها ».

إن الموت الذي يشكل هاجسًا مقلقًا يمكن أن ينظر إليه نظرة أمل وينظر إلى العيش في هذه الحياة على أنه عائق يحول بيننا وبين الحياة الحقيقية المنتظرة، وقد قال أحد فقهاء النفس والشرع: « إن المسلم إذا أدى ما افترضه اللَّه – تعالى – عليه، وانتهى عما نهاه عنه لم يكن بينه وبين أن يدخل الجنة إلا أن يموت » بهذه اللفتة والرؤية المختلفة تصبح الحياة شيئًا معوِّقًا، ويصبح الموت جسرًا إلى مأمول عظيم!

وكتب رجل في الثمانين إلى رجل في الستين مهنئًا له ببلوغ تلك السنِّ، يقول: « قد بدأت تعيش بعد ستين سنة من التأهب وأنت الآن من الحكمة بحيث يمكنك أن توجه نفسك، وتساعد الآخرين. ولهذا فأنت مقدَّر لك أن تكتشف كما اكتشفتُ أنا من قبلك أن أفضل شطر في الحياة هو بين الستين والثمانين. لا تتصور أبدًا أنك تقترب من النهاية؛ بل من بداية جديدة، وإن مثل هذا الموقف سيغير كليًّا استشرافك للمستقبل؛ وإن هذه الحياة وإن كانت تحتاج إلى أن نتحملها في بعض الأحيان إلا أنها تقدم أساسًا وإلى الأبد الوعَد بحياة أسمى وأجمل ».

إنه لشيء مدهش أن نمتلك من نفاذ البصيرة ما يجعلنا نبصر خطَّ النهاية ونحن عند خط البداية؛ فنوفر على أنفسنا الكثير من الجهد والعناء والكثير من صدمات الوعي وظلمات الطرق المسدودة! المنغِّصات والمتاعب ومضيّ

الأمور على غير ما نشتهي لها دائمًا وجه آخر يتجلى في كونها جزءًا من توازن الحياة، وبفضلها تتألَّق المسرّات والملذات؛ إذ إن من الواضح أن لا سبيل إلى الشعور بكمال الهناء إن لم يسبقه شعور بشيء من العوز والشقاء؛ فألذ الطعام ما كان بعد جوع وأهنأ الشراب ما كان بعد عطش... وحين يأتي ما يقطع بهجة من مباهج النفس، فإن تلك البهجة تتحول إلى ذكرى، وبذلك التحول تصبح مصدرًا لاستمتاع نقي نستدعيه متى ما شئنا!

السأم الذي يشكل ألد أعداء الحياة الهانئة، له هو الآخر وجهه المشرق؛ حيث إنه يشكل أفضل عازل لنفوسنا عن التفاعل مع الأشياء السيئة التي تضر بصحتنا النفسية والعقلية. والكسل الذي لا يلقى أي مديح من أي أحد كثيرًا ما يمهد لانطلاقة روحية وحركية عظيمة، كما أنه يعيد للحياة توازنها من خلال صرفنا عن النشاط المسرف والجدية المبالغ فيها.

المال الذي في أيدينا هو وسيلة تحرير لنا من ذل الحاجة ووسيلة تحرير من عالم الضرورات، لكن مواصلة الرحلة لاكتساب المزيد منه دون أي حدود قد تحوله إلى شيء يستعبدنا ويُنهكنا.

هكذا بالتفكير اللّانمطي وبالبراعة الشخصية في النظر إلى الأشياء من منطلق شخصي وخارج قواعد ما تشيعه العولمة للحياة المرفهة، يمكن لنا أن نستلهم الحقائق الكبرى في

الوجود ليبدأ فصل جديد في الحياة هو أكثر غنًى وإمتاعًا وأمنًا من كل ما عهدناه وخبرناه.

* * *

خيانة القوة

كما خان الرخاء الذي عثرت عليه إسبانيا في مصائد الذهب في أمريكا الجنوبية، فأقعدها عن الاهتمام بالفنون الصناعية فأصبحت في مؤخرة الدول الأوروبية، تخون القوةُ الأقوياءَ حين يعولون عليها في التعامل مع غيرهم وفي حل مشكلاتهم. الرخاء الزائد كالقوة الزائدة يصبحان عبئًا على المتمتعين بهما حين يحولان بينهم وبين القدرة على التكيف وبين البحث عن بدائل أخرى.

هكذا شهد التاريخ انقراض حيوانات ضخمة وأشجارًا عملاقة نظرًا لضعف قدرتها على التكيف، ولأن بقاءها صار يتطلب موارد كبيرة لا يمكن توافرها دائمًا. **الولايات المتحدة الأمريكية تقدم اليوم نموذجًا واضحًا لخيانة القوة والآثار السلبية التي يتركها التميز الشديد. ولعلي أستجلي هذا المعنى وما يدور في فلكه من خلال الوقفات الآتية:**

١ - أظهرت الأحداث الأخيرة أن أمريكا هي الدولة الوحيدة على الأرض التي تستطيع بما لها من إمكانات هائلة أن تجعل نصف العالم - على الأقل - يمضي وراءها إلى حيث لا تدري ولا يدري. فهي بما تملك من مال ونفوذ سياسي وقدرة على فعل غير المعقول، الدولة الوحيدة التي

تستطيع أن تقف على رؤوس الأشهاد لتلوح لبعض الدول بالجزرة ولبعضها الآخر بالعصا. وإذا كانت أمريكا تحتل المقعد الأول في العالم في هذا الشأن فإن خلفها صفًّا من المقاعد الفارغة التي لا تستطيع أي دولة في العالم احتلال الثاني أو الخامس منها. ربما كانت دولة كالصين أو بريطانيا أو روسيا قادرة على ملء المقعد التاسع أو العاشر من مقاعد القيادة الشاغرة.

هذه الوضعية اكتسبها الأمريكان من خلال قدرتهم على رصد عدة مئات من مليارات الدولارات لتأديب منظمة أو دولة تتوهم أمريكا أنها جرحت كرامتها؛ ومن خلال قدرتها على تجهيز جيوش قادرة على خوض ثلاثة حروب إقليمية في آنٍ واحد. لكن هذا التفرد في النفوذ الدولي لن يكون من غير ثمن. والثمن الذي تدفعه هو هنا جزء من خيانة القوة لها، فهي مستعدة لدفع تكاليف هائلة لخوض حرب كالتي تخوضها الآن دون أن يكون في وسعها الاستفادة من مشورة أحد أو الاستفادة من حكمة صديق أو خبرة مجرِّب، وما ذلك إلا لأنَّها تنظر إلى ما لدى الآخرين كما ينظر شخص من قمَّة جبل شاهق إلى رجل واقف في قاع وادٍ سحيق، إنَّه يراه صغيرًا مهما كان في واقع الأمر كبيرًا.

بعبارة أخرى نقول: إنَّ انفراد أمريكا بهذا القدر من القوّة يحول بينها وبين فهم الآخرين، فهي لا تستطيع فهم مدى

صدق صداقة الأصدقاء، ولا مدى ضراوة عداوة الأعداء. وكيف يستطيع فيل فهم المغزى من تحركات ذبابة على ظهره؟!

وفي المقابل فإن امتلاك أمريكا لهذه القوة الفريدة جعل مَنْ تفترض أنهم أصدقاؤها ينظرون إليها نظرة مركبة من التقدير والخوف والحسد وشيء من العداء الخفي، فهي مسيطرة على قرارات مجلس الأمن، وتملك قدرة استثنائية على تخريب كل المؤتمرات الدولية والمعاهدات العالمية التي ترى أنها لا تتناسب مع مصلحة دافع الضرائب الأمريكي، ومع مصالح الشركات الكبرى التي تتحكم في مفاصل القرار الأمريكي. ولذا فإن القول بأن حلفاء أمريكا في الحرب الضروس التي تشنها ضد شعب أعزل يسعون إلى توريطها أكثر من سعيهم إلى مساعدتها، إن هذا القول ليس بعيدًا عن الصواب؛ فنظرة الاستخفاف التي تلف علاقات أمريكا بحلفائها هي نفسها التي تولد لديهم شهوة الانتقام ممن يستخف بهم.

٢ - كشفت الأحداث أن أبنية الحضارة الحديثة بتعقيداتها البالغة وحساسياتها الشديدة هشة أكثر مما ينبغي؛ لأن الإنسان في العصر الحديث قدَّم كل رهاناته لأمنه الشخصي ورفاهيته وتلبية رغباته، وهو يعتمد أكثر فأكثر في تأمين وجوده على كثير من المعطيات غير الملموسة، وتلك التي يملكها مجهولون. كما أنه في الوقت نفسه فارغ من

الداخل إلى حد التلاشي. وهكذا فالزجاج لا يشكل جزءًا رئيسًا في ناطحات السحاب العملاقة فقط ولكنه يشكل بنية الإنسان المعاصر. وهذا الخواء المفرط هو الذي يجعل اقتصادًا عالميًا عملاقًا يقف على شفا الانهيار بسبب سقوط مبنيين لا تشكل قيمتهما شيئًا يذكر مما تملكه أمريكا فضلًا عما يملكه العالم! وهذا شكل آخر من أشكال خيانة القوة فكثرة ما يملكه الإنسان في العالم الصناعي جعلت حساسيته لفقده مثل حساسية الزجاج للكسر، ودفعته إلى الاحتياط في كل شيء، مما جعل كثيرًا من مشكلاته لا ينبع من معطيات واقعية وإنما من هلوسات ووساوس نفسية.

كما أن النجاح الهائل الذي أصاب الناس على الصعيد المادي شغلهم عن الاهتمام بوجودهم الروحي الذي هو المكمن الحقيقي لوجود الإنسان. وهذا جعل منه إنسانًا هلوعًا خائفًا من أي شيء. وهذا في حد ذاته كافٍ لإيجاد ارتباك هائل في التعامل مع الأزمات ولا سيما الطارئ منها.

الناس في أمريكا وأوروبا أكثر الناس إيغالًا في الحضارة الحديثة، وهم بالتالي أكثر الناس جزعًا، وأكثرهم أخذًا بالاحتياط في كل شيء؛ ومن ثمّ فإنهم أكثر الناس انشغالًا بتلبية احتياجات وجودهم المادي عن الاهتمام بتدعيم وجودهم الروحي والأخلاقي وعن الانشغال بالمصير الأخروي الذي سيدلفون إليه. وهكذا تحولت الحضارة الغربية والإنسان

الغربي أيضًا إلى هيكل يتمتع بكل أشكال القوة التي تستجنُّ وتستبطن كل أشكال الضعف. وإن شئت فقل: إن الإنسان الغربي صار نموذجًا للضعف الذي تصنعه القوة!.

٣ - قالوا قديمًا: إن السياسة أكبر من أن تترك للسياسيين. ويأتي الشعب الأمريكي في الحقيقة في طليعة الشعوب التي تركت الشأن السياسي للسياسيين. وهنا تخونه القوة متعاونة مع الرخاء مرة ثالثة؛ حيث إن الذي يعيش في أمريكا يشعر بدرجة عالية من الاطمئنان والحرية والتعامل معه على أنه موثوق، ويتمتع بقدر من الوفرة المالية بالإضافة إلى المناظر الخلابة... إنه يشعر أنه يعيش فعلًا في عاصمة العالم؛ ولذا فإن السواد الأعظم من الأمريكيين مشغول بأمرين: أداء العمل الذي يقوم به على أفضل وجه ممكن والهندسة المتكررة لقضاء إجازة نهاية الأسبوع، على نحو ينسيه متاعبه.

أما ما وراء ذلك من معرفة وفهم حقيقة ما يجري داخل البلد وخارجه؛ فإنه لا يلفت انتباه سوى قلة قليلة جدًّا من الأمريكيين؛ ولذا فإن الشعب الأمريكي يعد من أجهل شعوب الأرض في الشؤون الدولية والشؤون السياسية عامة. أما جهله بما يجري خارج أمريكا، فدافعه الاستخفاف وعدم الاكتراث، وعدم وجود أي حاجة إليه أو فائدة ترجى منه. وما حاجة من يعيش في عاصمة كبيرة إلى أن يعرف ما يجري داخل كوخ يقع على بعد مئات الأميال؟!

وإذا أحب الأمريكي أن يفتح عينيه ليرى ما يجري خارج بلاده وجد نفسه عاجزًا عن الرؤية إلا من خلال نظارة صنعها الإعلام الأمريكي الضخم والمؤثر والمتنوع ظاهرًا، الشديد التشابه باطنًا؛ حيث إنه مملوك للذين يمولون الانتخابات وأولئك الذين يصدرون السلع للخارج. إنه إعلام غير شفاف وغير بريء؛ لأن قدرته على أن يكون محايدًا محدودة. وهكذا يجد الأمريكي نفسه بين الجهل والرؤية الزائفة المصابة بالحول!.

وأما جهله بمجريات الأحداث داخل أمريكا فدافعه عدم وجود وقت للمتابعة بالإضافة إلى اليأس من إمكانية النفوذ إلى مواطن صناعة القرار أو التأثير فيها؛ ولذا فإن نسبة قليلة من الأمريكيين تشارك في الانتخابات، حيث يعلم الناس هناك أن النجاح محصور في أحد الحزبين العتيدين فقط، وما دام ليس هناك رضا عن أي منهما، فما معنى المشاركة؟

هذه الوضعية تشكل خطرًا بالغًا على مستقبل أمريكا؛ إذ من الواضح أن في أمريكا اليوم وجهًا وقناعًا؛ فالمواطن الأمريكي العادي يملك عددًا من الصفات الجيدة مثل البساطة والطيبة والانفتاح وقبول التعدد الإثني والجدية والسعي إلى تطوير الذات... لكن اعتزاله للسياسة جعل الساسة هناك لا يعبرون عن الوجه الحقيقي لأمريكا. بعبارة أخرى: إن ساسة أمريكا ليسوا أمناء على قيم أمريكا. وفي

بعض الأحيان لا يستطيعون أن يكونوا أمناء بسبب النفوذ الصهيوني. إنهم ما بين مشغول بتحقيق أمجاده الشخصية وما بين مشغول بتحقيق مصالح لا تتطابق مع مصالح الشعب الأمريكي وما بين واعٍ نظيف لكنه لا يجد نفسه أكثر من مسمار جيد في آلة مهترئة. ولذا فإن الكراهية التي تلقاها أمريكا لدى معظم شعوب العالم إنما هي فرع من عجز الشعب الأمريكي عن ممارسة السياسة والقيام بدوره في الاضطلاع بحماية هويته ومصالحه.

٤ – إن من العجيب أن تكون قوة أمريكا سببًا في عمى بصيرتها عن رؤية جوهر العظمة التي تتمتع بها، كما يعمى إنسان عند ممارسة تخصص ما عن الإمكانات الكبيرة التي يملكها في تخصص آخر! الولايات المتحدة التي تتصرف على أنها شرطي العالم، وتتحرك كما لو كانت الكرة الأرضية حقل صيد لها، تعرِّض قيمها لامتحان خطير.

ودعونا نقول في البداية: إن مجموعة المبادئ والقيم التي تشكل القاعدة الثقافية والأخلاقية للغرب لم تتعرض لأي امتحان حقيقي؛ حيث إنها نشأت في ظل الأمن والرخاء والاستقرار وسيادة القانون ومثالية الفلاسفة والغلبة الحضارية. ولن يكون من مصلحة أي دولة ولا جماعة أن تعرض منسوبيها إلى امتحان أخلاقي لا تعرف بالضبط نتائجه.

القوة التي تتمتع بها أمريكا تغريها بالانتقام والتهور

غير آبهة بالنتائج التي تترتب عليها. والمسيطرون على القرار هناك يغذُّون الشعب كله الآن بهذه الروح حتى تنجح حملة المطرقة على الذبابة، وحتى يرتاح الشعب الأمريكي من وخز الضمير مهما شاهد من صور المآسي التي تصنعها قواته، ومهما شاهد من القتل الفظيع لأطفال ونساء وشيوخ لا ذنب لهم، ولا حول لهم ولا قوة متذرعة بحجج واهية غير قابلة للنشر لا لشيء إلا لأن أي قاضٍ في الدنيا - مهما تجرد من احترام الدستور الذي يعمل على أساسه - لا يستطيع القبول بها أو اعتبارها كافية لتجريم أي أحد!

إن أمريكا كيان صنعه الأجانب. والنظم التي تتمتع بها تجعل أي وافد إلى أمريكا يشعر أنه هو الرابح، وتكون أمريكا في الحقيقة هي الرابح الأول. وهذا جعل البلد نموذجًا ناجحًا لصهر الأعراق وإذابة الثقافات، مما جعلها تنعم بخيرات التعدد الإثني دون أن تكتوي بناره. لكن زعماء أمريكا يعرّضون هذا كله للخطر، فأنت حين تملأ صدور شعبك بالكراهية والحقد، لا تملك أي ضمانة تحول دون أن يتحول ذلك الحقد في لحظة ما ليصبح سلاحًا فتاكًا يهدم البلد من الداخل؛ فالحطيئة حين أدمن الهجاء لم يجد فكاكًا من أن يهجو نفسه وأهل بيته، وهكذا ينقلب السحر على الساحر.

أمريكا قد تربح الحرب في أفغانستان، لكن ليس من غير ترك ندوب في نفسية جنودها ومن غير تشويه القاعدة

الأخلاقية لديهم. وقد تستطيع من خلال الرقابة الأمنية المفرطة أن تحقق شيئًا من الأمن لشعبها، لكنها تسمم الحياة الثقافية كلها بما تشيعه من أخلاقيات الترقب والتجسس والنفاق وتعذيب المتهمين... إن أمريكا الجبارة تعري بنيتها القانونية من المصداقية حين تنكص على أعقابها لتسنَّ قوانين تعود بها إلى حمأة التفرقة العنصرية من جديد بعد أن كافحت طويلًا للتخلص منها. إنها العملاق الذي يقتات على بعض أعضائه كي يبقى حيًّا!

الحلم الأمريكي قد يتحول على المدى البعيد إلى كابوس، وتتحول معه أمريكا من بلد يجذب أفضل العقول في العالم لتعمل في خدمته إلى بلد لا يأتيه أحد إلا مكرهًا. وقد دلت دراسات عدة أن مكاسب أمريكا من وراء العقول المهاجرة أكبر بكثير من كل المعونات الخارجية التي تقدمها لدول العالم النامي. وهكذا فمن خلال الزهو بالقوة والبطش بالضعفاء والحرص على الربح السريع قد تخسر أمريكا ما لا تعرف كيف تسترجعه على المدى البعيد.

٥ - إن السلوك المتعجرف لزعماء أمريكا والمعاملة الخشنة التي يلمسها عادة من يقيم علاقة معهم، وتصرفها من منطلق الحق الذي تمنحه القوة جعل أمريكا عاجزة عن فهم الآخرين على حقيقتهم. والآخرون الذين يقيمون علاقات معها عاجزون من جهتهم عن فهم أمريكا؛ لأن

علاقتهم بها غير متكافئة ولا مستقرة.

إن من الصعب على أمريكا أن ترى العالم على ما هو عليه، فهي لم تذق طعم الذل الذي تجرعه لغيرها، كما أنها لم تذق معنى الحرمان والخوف الذي تذيقه للشعوب الأخرى، ولا تعرف معنى نهبها لثروات الأمم ومدى وقع ذلك على الضعفاء والمحرومين، إن قوة أمريكا حرمتها من الحكمة التي تحتاجها، ومن ممارسة السياسة التي يجب أن تمارسها بوصفها الدولة الأولى في العالم. ولهذا كله فهي لا تعرف لماذا يشمت بها العالم، ولماذا لا يشوب خوفَ العالم منها الاحترامُ الذي يتناسب مع حجمها.

نحن المسلمين أيضًا غير قادرين على بلورة رؤية لحقيقة أمريكا؛ فاختلاف الدين وبعد المكان وقلة الباحثين لدينا في الشأن الأمريكي وشعورنا بالظلم بالإضافة إلى أسباب أخرى جعلنا ننظر إليها بمناظير شتى، فمنا من يقول: إن الشعب الأمريكي عارف بكل ما يفعله ساسته، وهم يستشيرونه في كل ما يقدمون عليه، وهو موافق عليه، وعليه أن يدفع الثمن. وهذا بعيد جدًّا عن الحقيقة.

ومنا من يقول: إن قيادة أمريكا قادرة على إلجام إسرائيل وإيقافها عند حدودها؛ ولذا فإنهم يطالبونها بموقف حازم وعادل من زعماء الصهيونية وهذا صحيح جزئيًّا وفي مسائل تكتيكية وإجرائية صغيرة، لكن حين يصل الأمر

إلى الموضوعات الكبرى مثل موضوع القدس واللاجئين وإقامة الدولة الفلسطينية - وهي الموضوعات التي تشكل جوهر الصراع في نظر القيادة الفلسطينية الحالية - فإن أمريكا ليست بأقدر من العرب على ممارسة الضغوط؛ لأن اللوبي الصهيوني هناك يملك كل أوراق اللعبة، ومن السهل عليه أن يوقف أي قيادي أمريكي عند حدوده بل تدمير مستقبله السياسي إذا لزم الأمر.

ومنا من يظهر له أن هذه الأحداث هي بداية نهاية أمريكا، ويعلقون على ذلك الآمال العراض. وهذا مبالغ فيه. نعم إن إخفاق أمريكا في أفغانستان متوقع. ولكن سيكون إخفاقًا جزئيًا. وهو حين يتم سيجعلها وفي أسوأ الأحوال تتراجع من دولة تتقدم الدول العظمى إلى دولة تقف في مصافها. ولكن حتى هذا لا يحدث في وقت فوري وربما احتاج إلى عقدين من الزمان.

منا من يعتقد أن ما يسمى بالعولمة هو عبارة عن أمركة، وأن شرور العولمة صناعة أمريكية. وهذا غير دقيق فالعولمة وضعية كونية جديدة نشأت عن التقدم التقني وعن الفائض الهائل في رؤوس الأموال لدى الدول الصناعية. ولا شك أن أمريكا أكبر لاعب في ملاعب العولمة، لكن وجود العولمة ليس مرتبطًا بصورة نهائية بنفوذ أمريكا. ولو قدرنا انسحاب أمريكا من أنشطة العولمة فإن العولمة لن تنتهي وستتقدم دول

أخرى لتملأ الفراغ الذي تتركه أمريكا.

ومنا ومنا...

نحن بحاجة إلى أن نبلور رؤية تركيبية جديدة للغرب عامة ولأمريكا خاصة. هذه الرؤية تأخذ بالحسبان وضع الشعب الأمريكي، كما تأخذ وضع السياسة الأمريكية. رؤية تبصر ما تقدمه أمريكا للعالم، وما تأخذه منه رؤية تبلور خطوطًا عريضة للتعامل مع أمريكا على مختلف الصعد، ولا سيما على الصعيد الثقافي والإعلامي والدعوي. ومن خلال تلك الرؤية نستطيع أن ننظم علاقاتنا مع ذلك البلد، وأن نحدد نوعية ردود أفعالنا .

إن مشكلتنا نحن المسلمين أن أصعب شيء علينا هو البحث والدرس العميق لجذور ثقافة الأعداء والمخالفين والمنافسين، وأن أسهل شيء علينا هو إصدار الأحكام السريعة. وهذا مخالف لأدبيات المنهج الذي نؤمن، كما أنه يعود علينا بأضرار بالغة. وكم كنت أتمنى أن يكون لدينا عشرة من الباحثين العمالقة الذين يتخصص كل واحد منهم في بحث جانب من جوانب الحياة الأمريكية ليؤسسوا قاعدة صلبة من المعرفة والفهم تمكننا من التعامل الراشد مع أمريكا بما يخدم قضايانا ومصالحنا. وما ذلك بالشيء العسير إذا امتلكنا ما يكفي من الإرادة والوعي.

* * *

تربية جديدة

إذا راجعنا أدبيات التربية الذاتية والتربية الغيرية التي سادت في حقب متطاولة من تاريخنا، وجدنا أنها لم تعد ملائمة لزماننا. فعلى صعيد التربية الذاتية نجد كتب التربية والزهد والتصوف مملوءة بالأخبار التي تدل على أن الخط العام في التعامل مع الذات كان يرتكز على القمع والكبت، وليس على التنمية والتوجيه والتوظيف.

إن مربين كثيرين كانوا يعتقدون أن الارتقاء بالنفس لا يتم إلا من خلال حرمانها مما تشتهيه وإبعادها عن الأضواء ومواطن الشهرة، ولذا فقد كانوا يعدون من أمارات (الولاية) الجوع والعزلة والصمت. ونجد في تراجم كثير من الزهاد والعباد وطلبة العلم أخبارًا تدل على انفعالهم بهذا الخط؛ فهذا يلبس الثياب المرقَّعة حتى يُذلَّ نفسه، ويحول بينها وبين الكبر. وهذا يغادر البلد الذي اشتهر فيه حتى لا يصيبه الغرور بسبب إقبال الناس عليه. والعابد الفلاني ظل سنوات لا يأكل في اليوم الواحد سوى عشر تمرات. والزاهد الفلاني ظل شهورًا يأكل قشر البطيخ الذي يجده على شواطئ دجلة أو الفرات...

ومع أن قمع النفس بهذه الأساليب قد يكون مفيدًا،

وقد يكون شيئًا لا بديل عنه في بعض الحالات، ولدى بعض الناس، لكن الضرر البالغ يأتي من خلال تصوير ذلك على أنه صفة لصيقة بالسلوك القويم للمسلم النموذجي؛ حيث يفضي ذلك إلى أن يصبح خيار الأمة مهمَّشين وبعيدين عن دوائر التأثير؛ فالمسلم الجائع لا يتصدق ولكن يُتصدَّق عليه. والمسلم المنعزل يقاد، ولا يقود. والمسلم الصامت يتأثر، ولا يؤثر... وآنذاك ينتشر النموذج الذي يجمع بين الاستقامة والعجز، كما يكثر النموذج الذي يجمع بين القوة والفجور. وقد كان عمر ﷺ يقول: أشكو إلى اللّٰه جَلَد الفاجر وعجز الثقة!.

إن طبيعة العصر الذي نعيش فيه باتجاهاته ومحاوره وفرصه وتحدياته توجب علينا أن نبلور رؤى لتربية جديدة تتشكل داخل إطار عام ينبثق من قول اللّٰه - جلَّ وعلا -: ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٦].

إن الأمانة بمدلولها الواسع، تعني الالتزام والاستقامة والصدق والإحسان إلى الناس، إنها (الصلاح) في المفهوم الشرعي. أما القوة فإنها بمدلولها الواسع تعني الكفاءة والفاعلية والمهارة والإنتاجية العالية والقدرة على الاستمرار في بذل الجهد وتحمل المشاق، إنها (النجاح) في المفهوم الإداري الحديث.

وتحقيق هذين الأمرين في حياتنا لا يأتي على نحو جوهري من خلال الانكماش والعزلة وقمع الذات وتخفيض

الطاقة إلى الحد الأدنى، وإنما من خلال النشاط والحركة والاتصال والتدريب والمثابرة والعطاء والانخراط في تيار الأحداث العامة.

والمشكلة التي تواجهنا في هذا الشأن تتعلق بالتوازن المطلوب لتحقيق الصلاح والنجاح؛ حيث إن معظم الناس مصابون بالتطرف والميل إلى أحدهما على حساب الآخر. وإذا راجعنا مفردات الخطاب الإسلامي القديم، وجدنا أن يركِّز على الصلاح على نحو لافت، ولا يعطي النجاح إلا القليل من الاهتمام. أما اليوم فإن الخطاب الإعلامي يتمركز على نحو جوهري حول التفوق والنجاح، ولا يتحدث عن الصلاح إلا عَرَضًا.

المسلم الصالح الذي لا يقدم نموذجًا في التفوق، لا يستطيع في عصر العولمة أن يحيا الحياة الطيبة؛ بل لا يستطيع أن يحافظ على صلاحه بالمفهوم الحضاري الإسلامي. والمسلم الذي ينجح بعيدًا عن مبادئه، لا يحقق سوى نجاح موهوم ومؤقت. وعلينا أن ننبه أولئك الذين يعدون النجاح والتفوق سفينة النجاة التي على جميع أبناء الأمة أن يبحروا بها، علينا أن ننبههم إلى أن الخط الفاصل بين النجاح واللصوصية، والفردية والأنانية، والحرية والفوضى هو خط ضيق جدًّا، وإن من السهل على المرء أن يتجاوز ذلك الخط ليتحول من إنسان ناجح إلى إنسان خاسر ومخرِّب!.

أما على صعيد التربية الغيرية فإن تاريخ التربية لدينا يشير إلى أن أكثر الآباء في البيوت كانوا في معظم الأحيان يقومون بفرض نوع من الهيبة المصطنَعة، وكانت مناقشة الطفل لوالده في أمرٍ ما كثيرًا ما تفسَّر على أنها إخلال بالأدب وتجرّؤ على مقام الأبوة.

أضف إلى هذا أن كثيرًا من الآباء لم يكن يتكلم مع ولده إلا إذا حدثت لديه مشكلة. وكانت الرؤية السلبية للأبناء كثيرًا ما تطغى على الرؤية الإيجابية؛ ولذا فقد كان هناك غلو في متابعة الأبناء وتحديد حركتهم وتشديد الرقابة عليهم، وغلو في الشك فيهم، والتعامل مع الكبار منهم على أنهم ما زالوا صغارًا!

أما اليوم فإن الحاجة باتت ماسَّة إلى تربية تقوم على زرع الوازع الداخلي الذي يولّد الانضباط الذاتي والامتناع الشخصي عن كل ما يشين ويجرح صفاء التدين والمروءة. لكن كان هناك شيء جيد هو اشتراك الأقرباء والجيران والأصدقاء في التربية والتوجيه والنصح ومعاونة الأبوين في مهمتهما. وهذا ما بدأنا نفقده اليوم مع الأسف الشديد بدعوى الاستقلالية والحرية الشخصية.

وعلى صعيد التعليم فقد كان مما يُمدح في الطالب قلة التحرك في مجلس العلم والصمت وقلة المناقشة. ولم يكن أهل القرون الخيّرة كذلك، وإنما حدث ذلك لدى أهل القرون

المتأخرة. والذي نحتاجه اليوم هو التفاعل بين الأستاذ والطالب بالإضافة إلى الحوار والمناقشة والمباسطة وإسقاط شيء من الكلفة؛ فالعلم روح تُنفخ لا مسائل تُنسخ. والتربية الجيدة ليست طريقًا ذات اتجاه واحد، وإنما هي طريق ذات اتجاهين.

* * *

عاطفيون...

في ذات كل واحد منا جانبان: عقلي وعاطفي. وهما يشكلان عاملي توازن في الشخصية. ومن الواضح أن معظم الناس يعانون من طغيان العاطفة عليهم، وما ذلك إلا لأن العاطفة فطرة. أما العقلانية والمحاكمة العقلية الجيدة فهي من الأمور المكتسبة. وأكثر الناس لا تسمح لهم ظروفهم بأن يكتسبوا المبادئ والمفاهيم التي تجعل الجانب العقلي لديهم مكافئًا للجانب العاطفي. **ولعلي ألمس هذه المسألة من خلال الحروف الصغيرة الآتية:**

١ – نحن معاشر العرب متَّهمون بسيطرة عواطفنا علينا، وهذا ليس بعيدًا عن الواقع. والحقيقة أن معظم الشعوب النامية تعاني من طغيان عواطفها عليها؛ وذلك في نظري أثر من آثار الثقافة الشفاهية التي خضعت لها منذ عشرات الأجيال؛ حيث إن الأمية لا تسمح بالكثير من التنظيم العقلي، ولا بالتخطيط البعيد المدى؛ مما يجعل الفوضى والآنية معلمًا واضحًا في حياة الشفاهيين. وطبيعة العاطفة أنها تميل إلى أن تكون قصيرة وغير منظمة. وكلما ترسخت التقاليد الكتابية في بيئة تحسَّن مستوى التنظير العقلي، وتحسَّنت بالتالي القدرة على توجيه العواطف والتحكم بها.

٢ - ليس في كون المرء عاطفيًا ما يعيب؛ فالتأثر الشعوري ينطوي على الكثير من سمات النبل، وله من الدلالات الخلقية والاجتماعية الفاضلة الكثير. والإيمان بالله - جلَّ وعلا - يتلبس بانفعال شعوري وإشراق روحي لا يستهان بهما. ولكن شتان بين تأثر عاطفي يتم في إطار الحق أو بسبب معرفته، وتأثر يُخرج صاحبه من إطار العدل والصواب؛ بين مشاعر نحن نصنعها، ونوجهها، ومشاعر تسيطر علينا وتوجهنا.

وقد أثنى الله - جلَّ وعلا - على الانفعال العاطفي الشديد والذي لا يجد صاحبه سوى الدمع للتعبير عنه حين قال: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٨٣]. إنه انفعال شديد بسبب معرفة الحق والاهتداء إليه. وعلَّمنا الله - جلّ وعلا - كيف نصنع مشاعرنا عن طريق البر والإحسان والأعمال الصالحة حين قال: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤] الإنسان العاطفي مستعد للتخلي عن ميزانه العقلي بسرعة؛ فهو إن خاصم نسي كل فضائل الخصم. وإن صادق نسي كل سلبيات الصديق. ونتيجة لهذا الخلل فإن من السهل عنده أن ينقلب الصديق إلى عدو، والعدو إلى صديق!

إن العاطفيين مزاجيون يصعب الوثوق بهم والاعتماد عليهم. يثير المديح أريحيتهم، فيطلقون الوعود المعسولة،

ويهوّنون كل صعب، فإذا جاء وقت الوفاء وجدوا أنفسهم غير قادرين على فعل أي شيء. وهذا ما نلاحظه في حياتنا العملية وعلى كل المستويات.

٣ - يقع العاطفيون دائمًا في قبضة غيرهم، فقابليتهم للتأثر السريع تُغري الآخرين باستفزازهم والمكر بهم. وَبُعْد الشخص العاطفي عن شيء اسمُه برمجة وتخطيط، يجعله يشتغل بتنفيذ خطط غيره وبرامجهم. وإذا تأملنا في تفاصيل الحياة الشخصية لمعظم الناس حولنا وجدنا ذلك واضحًا؛ فالواحد منهم لا يعرف غالبًا ما الذي عليه أن ينجزه في يومه أو شهره أو سنته. وكثير منهم يستدينون، ولا يعرفون كيف يقضون ديونهم. ولديهم آمال عريضة ولكن لا يشتغلون بتأمين الأدوات والإمكانات التي ستبلغهم إياها. ولديهم إلى جانب ذلك تصريحات عريضة، ليس في أرض الواقع ما يدل على قدرتهم على تنفيذها... ولهذا كله فإن الشخص العاطفي يبدو بمثابة قوة صوتية تارة، وبمثابة قوة صمتية تارة أخرى، وقلما يثبت أنه قوة حقيقية!.

٤ - يستمتع الإنسان العاطفي بفوران العاطفة؟ لأن ذلك الفوران يجعله يبدو وكأنه يؤدي واجبًا ما، أو يكفِّر عن ذنب ما، وربما كان ذلك مظهرًا من مظاهر العجز لديه؛ إذ إنه لا يملك أكثر من أن يبتهج أو يتألم؛ ولذا فإنه يتأذى ممن يخفف من وطأة عاطفته؛ فإذا كان الشخص العاطفي ينتظر

حدوث نصر سريع على عدو، فإنه ينظر بعين الغضب والعداوة لمن ينبهه إلى أن ذلك النصر بعيد الوقوع، وربما اتَّهمه بالعمالة أو التحالف مع الأعداء. وذلك لا لأنه يوقظه من حلم جميل فحسب، ولكن لأنَّه أشعره بأنَّه غير قادر على تقديم أي شيء؟

العواطف النبيلة هي ماء الحياة ورواؤها، ولكن مشكلتها أنّها تغري دائمًا بالتطرّف والخروج من دائرة العقل، وكثيرًا ما تضرب بتوازن الشخصية، فإذا أمكننا تلافي ذلك نعمنا بجمال العواطف دون أن نكتوي بنارها.

* * *

الاهتمام بالمباشر

التركيب العام لعقولنا وثقافتنا شديد الحساسية والتنبه للأشياء المباشرة مهما كانت صغيرة، كما أنه على العكس من ذلك مصاب بالتبلد والترهل تجاه الأمور غير المباشرة مهما كانت كبيرة. ويبدو أن هذه العلة عامة لدى الأمم والشعوب منذ أقدم العصور، وحتى يومنا هذا؛ فالأخطار الكبرى المألوفة وغير الحادة لا يراها الناس. والأخطار الصغيرة المفاجئة تثير أوسع الاهتمامات إذا وصلت إلى الناس عن طريق مباشر. قتلُ محمد الدُّرَّة قد أثار كثيرًا من المسلمين في أنحاء العالم، وفتَّق قرائح كثير من الشعراء على نحو لم يصنعه قتلُ ألوف الفلسطينيين عبر سنوات طويلة ماضية.

في عالمنا الإسلامي الكبير يموت في كل سنة عشرات الألوف من الأطفال نتيجة سوء التغذية وقلة الدواء، وتقع في أماكن متفرقة من العالم الإسلامي مجازر رهيبة يذهب ضحيتها أبرياء كثيرون، لكن ذلك لا يوقظ فينا مشاعر الحزن والغضب والثأر كالتي أثارها قتل محمد الدرة، وما ذاك إلا لأن الناس رأوا عبر شاشات الفضائيات صورة حية لتلك الجريمة النكراء. أما موت عشرات الألوف من المسلمين بطرق مختلفة فإننا عرفناه، وسمعنا به على شكل

روايات وحكايات تتناقل، فكان أثر ذلك ضعيفًا!.

يبدو أن الفزع من الأخطار المباشرة شيء موروث من الحياة البدائية الأولى؛ حيث كان الناس لا يعرفون معنى للحذر من الأخطار الكبرى وغير المباشرة. وجلُّ ما يحتاجون إليه يتمثل في حماية أنفسهم من صولة وحش كاسر أو سيل جارف أو إعصار مدمر، ولم يكن ثمة مخاطر عامة تهدد الحياة على وجه البسيطة، كما هو الشأن اليوم، ولم يكن لديهم من الخبرة وسعة المعرفة ووسائل المراقبة ما يمكّنهم من رؤية تلك المخاطر لو كانت موجودة.

أما اليوم فقد اختلفت الأمور، لكن عقولنا لم تختلف؛ فالناس اليوم لا يواجهون إلا القليل من المخاطر المباشرة والعاجلة بسبب تنظيم الحياة وبسبب السيطرة شبه التامة على البيئة الطبيعية، لكن الذي يتصاعد اليوم هو الأخطار الكبرى التي تهدد وجود الأمم على المستوى الروحي والمادي، ولا أحد يلقي بالًا لذلك؛ لأن عقولنا ليست مجهَّزة للتعامل معها.

في العالم اليوم بطالة رهيبة وانتشار مخيف لأمراض الإيدز والسرطان والحساسية، إلى جانب مخاطر استخدام الطاقة النووية والتعامل مع مخلفاتها، كما أن في العالم نضوبًا متزايدًا للمياه العذبة وانتشارًا للتصحر. وفي العالم اليوم تراجع للتماسك الأسري ولتأثير القيم والمبادئ في

توجيه السلوك، كما أن الإحساس بالأهداف الكبرى بات في أضعف حالاته لدى معظِم الناس... وكل هذه الأشياء لا تثير ردود فعل تذكر عند بني البشر، وصار موقفنا تجاهها لا يُفسَّر إلا أنه غفلة أو استسلام!

صارت الصدمات والكوارث هي المنبه الوحيد الصالح لإيقاظنا؛ فحادثة (شرنوبيل) في روسيا شكلت صدمة للعالم، وفتحت عيون الناس على المخاطر المحتملة لاستخدام الطاقة النووية أكثر بكثير مما فعلته ألوف التحذيرات من علماء البيئة وأحزاب الخضر والأطباء وغيرهم! حين وقعت حادثة الردة بعد وفاة النبي ﷺ نهض المسلمون لمقاومتها وصار القضاء على تلك الفتنة العظيمة الشغل الشاغل للمسلمين، وقد تمكنوا من إطفاء نارها في وقت قياسي؛ لأنها شكّلت صدمة للوعي الإسلامي المبتهج بانتصارات الإسلام السريعة، لكن تراجع التدين والالتزام الذي كان يحدث لدى معظم المسلمين كلما ابتعدوا عن حقبة صدر الإسلام لم يثر إلا القليل من الاحتجاج وإلا القليل من الانزعاج.

وهكذا فقد فقدت الأمة مركزها الريادي في العالم عبر قرون من التراجعات البطيئة وغير المحسوسة دون أن يُصدم الوعي الإسلامي الصدمة التي تحرر طاقات المسلمين على نحوِ مما حدث أيام الردة.

لعل هذا كله يحفز شبابنا على أن يبدعوا في إيجاد مقاييس ومجسَّات نتحسَّس من خلالها التغيرات البطيئة والتحولات غير المرئية التي تهدد كيان الأمة دون أن تشعر بها، ولن نستطيع القيام بشيء ذي قيمة في هذا الشأن ما لم نوسِّع المساحات التي يغطيها وعينا وشعورنا حتى نبصر الأخطار والانحرافات على امتداد أزمان متطاولة.

* * *

الاستثمار في الإعلام

كان المفترض أن يقود المسلمون ثورة الاتصالات في العالم حتى يتمكنوا من تبليغ الرسالة، وحتى يتمكنوا من التواصل والتعاون فيما بينهم، ولا سيما أنهم موزعون على أرجاء العالم كافة؛ لكن بما أن ذلك لم يحدث - لأسباب معروفة - فلا أقل أن نستفيد من الإمكانات الهائلة التي وفرها التقدم التقني على صعيد الاتصالات والبث الفضائي وشبكات المعلومات...

إنني لا أعني ابتداءً بالاستثمار استثمار المال فحسب؛ فالمال ضروري وجوهري ومن دونه لا نستطيع القيام بالكثير من الأعمال، لكن هناك أمورًا كثيرة أيضًا لا يتم تحقيقها من خلال المال. إنني أعني بالاستثمار في الإعلام إيجاد الاهتمام أولًا بهذا القطاع الحيوي والمهم جدًّا؛ حيث إن أي مجال أو قطاع لا يرتقي إلا من خلال كثرة المهتمين به.

كما أعني بالاستثمار في الإعلام بذل الجهد والوقت في تفعيل دور الإعلام الإسلامي في النهوض بالأمة وحل مشكلاتها؛ فبناء مواقع إسلامية على (الإنترنت) يتطلب المال، ولكنه يتطلب الجهد والتعب أكثر من حاجته إلى المال. وطبيعة ممارسة الإعلام والدعوة إلى اللَّه - تعالى -

على الشبكات المعلوماتية تتسم بالمرونة، ويمكن أن يسهم في إثرائها الكثير من الشباب والأشبال بعد القليل من التدريب والخبرة. إننا بالمال نستطيع إيجاد بنًى وهياكل إعلامية، لكن بناء الإعلامي اللاّمع المحترف يحتاج إلى وقت وقد يكون عليك أن تصبر عشرين سنة حتى تحصل على إعلامي ممتاز؛ ففهم البيئة الإعلامية واستيعاب الفرص والتحديات الموجودة فيها وشق طريق خاص متميز بين شعابها ووهادها يحتاج إلى الممارسة والمعاناة والانخراط في لجة العمل الإعلامي. والزمن عامل مهم في بلوغ كل ذلك.

اليهود يتمتعون بالإدراك العميق لأحوال عصرنا، وبالخبرة الواسعة بمكامن القوة فيه، وقد كانوا يقولون في الماضي: من يملك الذهب يملك العالم، وهم يقولون اليوم: من يملك الإعلام يملك العالم وهذا القول عميق الدلالة؛ فالإعلام اليوم من خلال الإتقان الفائق للبرامج التي يقدمها، ومن خلال ما يتمتع به من قدرة كبيرة على التأثير بات قادرًا فعلًا على أن يصنع شيئًا من لا شيء؛ إنه قادر على أن يوجد بيئة كاملة من الأفكار والمشاعر والقيم والاهتمامات والاتجاهات لأمور تافهة أو هامشية مثل الرياضة والفن والطبخ والأزياء... والملاحظ - مثلًا - أن بعض منتجات (هوليود) من الأفلام والأعمال الفنية بات يركز على إظهار (البوذية) بوصفها الديانة الأعمق روحانية والأكثر إنسانية وقد اقتنع

كثير من الناس في الغرب - على الأقل - بذلك. والسبب هو أن اليابانيين اشتروا أسهمًا في (هوليود) بعشرات المليارات من الدولارات، وباتوا يتحكمون في إنتاجها. وقد قدموا بذلك خدمة لديانتهم من الصعب أن تحظى بها لولا عمليات الشراء تلك!.

والإعلام في المقابل قادر من خلال تجاهله وتعاميه أن يسدل الستار على أكثر القضايا والأزمات والنكبات حيوية وشناعة، ففي عالم مهموم ومشغول ومشتت يصبح إرباك الوعي وصرف الانتباه أمرًا في غاية السهولة. وأكبر دليل على ذلك ما جرى ويجري في فلسطين السليبة، حيث بلغت المأساة حدًّا جعل وزير خارجية العدو الإسرائيلي يقول: ما جرى في مخيم جنين مجزرة. وجعل بعض موظفي الصليب الأحمر يقولون: إن وضع مخيم جنين يشبه وضع برلين عام (١٩٤٥م) عقب الحرب العالمية الثانية!!.

إن أمة الإسلام غنية بالأحزان وبالصور والمشاهد المؤلمة والمفجعة وعصرنا - كما يقولون - هو عصر الصورة، لكن أين الإعلاميون المسلمون الذين ينقلون صور مآسينا للعالم الذي ضلّله الإعلام الصهيوني والإعلام المتحالف معه؟!.

بالإضافة إلى ما ذكر نحن بحاجة إلى تكثيف الاستثمار في الإعلام لسببين جوهريين:

الأول: هو تأدية أمانة التبليغ وإيصال رسالة الإسلام إلى الناس كافة. والحقيقة أن البث الفضائي المتوافر الآن إلى جانب شبكات المعلومات قد وفَّرا وسائل للتبليغ، كان أسلافنا عاجزين عن الحلم بها. فقد أمكن الآن مخاطبة مئات الملايين من البشر في آنٍ واحد وإيصال ما نريد إليهم، على حين كان الناس في الماضي يغبطون العالم إذا جلس في حلقته ألف من طلاب العلم. إن هذه السهولة في التواصل العالمي جاءت في الوقت المناسب؛ حيث إن معظم سكان الأرض قد فقدوا اليوم الإحساس بالأهداف الكبرى والإحساس بالغاية من الوجود. والمسلمون وحدهم هم الذين يملكون الرؤية والمنهج اللذين يحتاج إليهما العالم.

الأمر الثاني: هو مقاومة شرور الإعلام الماجن الذي دخل كثيرًا من البيوت، وباشر عملية تخريب واسعة النطاق من خلال إفساد الأعراف والأذواق والمفاهيم، إنه فعلًا يعيد صياغة العقول والمشاعر من جديد على نحو بالغ السوء وليس هناك من حل اليوم سوى إيجاد إعلام إسلامي قادر على المنافسة والاستيلاء على جزء من الجماهير. إن الإعلام يشكل شيئًا جوهريًّا في عصرنا، وإن التقدم على صعيده يعد من الشروط المهمة لفهم روح العصر والتأثير فيه؛ وقد قال أحد المفكرين:

« إذا لم يكن لك روح عصر كانت لك كل شروره ».

الإعلام الإسلامي يواجه تحديات لا يواجهها أي إعلام آخر، حيث إن عليه أن يجمع بين الجاذبية والالتزام؛ ولذا فإنه لا يستطيع أن يتغذى على شهوات الناس ورغباتهم، كما لا يستطيع مخادعة الناس واستغلالهم - كما يفعل الإعلام الآخر - ولكن مع هذا فإن ترسيخ وجوده في الساحات العالمية ليس بالأمر المستحيل إذا توافر لدينا ما يكفي من الوعي والإخلاص والعزيمة.

إن أغنياء المسلمين مطالبون ببذل الأموال ووقف العقارات من أجل إنشاء المؤسسات الإعلامية. وإن الدعاة والمثقفين مطالبون بأن يسعوا في بناء الأطر الإعلامية وتأسيس مؤسسات الإنتاج الإعلامي وتوجيه الطاقات الشابة من أجل العمل في هذا المجال المهم. أما جمهور المسلمين فإن دعمهم للإعلام الإسلامي يتمثل في شراء منتجاته وقراءتها وفي الإعلان في وسائله، وفي التفاعل مع الرسالة الإعلامية التي يقدمها لهم.

* * *

وفي الختام أسال الله سبحانه أن يرزقنا الرشد في الأمر كله وأن يصلحنا، ويصلح لنا وبنا، إنه سميع مجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله وسلّم على عبده ونبيّه محمد وعلى آله وصحبه آجمعين.

السيرة الذاتية للمؤلف

أ. د. عبد الكريم بكار.

حصل على البكالوريوس من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، وعلى الماجستير في عام: (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، والدكتوراه في عام: (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) من قسم أصول اللغة بالكلية نفسها بجامعة الأزهر، وكان عنوان رسالة الدكتوراه: « الأصوات واللهجات في قراءة الكسائي ».

قاد أ. د. عبد الكريم بكار مسيرة أكاديمية طويلة، دامت (٢٦ عامًا) بدأت عام: (١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في القصيم (السعودية)، لينتقل بعدها إلى جامعة الملك خالد في أبها في عام: (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، حصل خلالها على درجة الأستاذية في عام: (١٤١٢هـ/١٩٩٢م) وليبقى فيها حتى استقال منها عام: (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م)؛ ليتفرغ للتأليف والعمل الثقافي والفكري؛ حيث يقيم في العاصمة السعودية الرياض.

وتركزت المسيرة الأكاديمية للدكتور بكار على تدريس اللُّغويات، والتي شملت مواد المعاجم اللُّغوية، دلالة الألفاظ، الأصوات اللغوية، اللهجات العربية، القراءات القرآنية واللهجات، النحو، الصرف، المدارس النحوية وتاريخ النحو. كما قدم د. بكار خلال تلك الفترة عددًا من الأبحاث والكتب المتخصصة والتعليمية في مجال اللُّغويات، وأسهم في النشاط الأكاديمي للجامعات التي عمل بها من خلال رئاسته لعدد كبير من اللجان العلمية، ورئاسته لقسم النحو والصرف وفقه اللغة لعدة سنوات، ومساهمته في وضع المناهج، والإشراف على البحوث، وتحكيم الدراسات العلمية.

وللدكتور بكار نشاط مكثف على صعيد المحاضرات، والندوات الفكرية

والثقافية والدورات التدريبية، وشارك في المئات منها في المملكة العربية السعودية والكويت وقطر والبحرين وتركيا ولبنان ومصر والأردن وماليزيا والسودان. كما يقدم حاليًا برنامجًا أسبوعيًا في قناة (دليل الإسلامية) باسم: « آفاق حضارية »، وبرنامجًا شهريًا بقناة (المجد) باسم: « معالي »، وكان د. بكار قد قدم برنامجًا تلفزيونيًا أسبوعيًا في قناة (المجد) باسم: « دروب النهضة » لمدة عامين، وبرنامجًا إذاعيًا أسبوعيًا باسم: « بناء العقل في القرآن الكريم »، وبرنامجًا إذاعيًا أسبوعيًا آخر باسم: « العلاقات الإنسانية في المجتمع الإسلامي » استمرًا لمدة سنتين بإذاعة القرآن الكريم بالرياض؛ بالإضافة لاستضافته في برامج عديدة على قناة (الرسالة)، وقناة (اقرأ)، وقناة (الناس) والتلفزيون السعودي.

ويحرص د. بكار على أن يقدم رؤاه الفكرية والتربوية من خلال مشاركته الواسعة في مختلف الصحف، والمجلات العربية المتخصصة والعامة؛ حيث يكتب د. بكار مقالات دورية في مجلة (البيان) اللندنية ومجلة (الإسلام اليوم) الشهرية، ومجلة: (مهارتي) الصادرة عن جامعة الملك سعود وموقع (الإسلام اليوم)، كما يشارك باستمرار منذ أكثر من عشرين سنة بمقالاته ودراساته في عدد من المجلات الدورية الأخرى.

ود. بكار عضو في المجلس التأسيسي للهيئة العالمية للإعلام الإسلامي التابعة لرابطة العالم الإسلامي (الرياض)، وعضو الهيئة الاستشارية بمجلة: (الإسلام اليوم) (الرياض)، وعضو الهيئة التأسيسية لقناة (دليل)، وعضو في مجلس الأمناء لقناة (سنا) الفضائية (عمان).

ويعد د. بكار أحد المؤلفين البارزين في مجالات التربية والفكر الإسلامي؛ حيث يسعى إلى تقديم طرح مؤصل ومجدد لمختلف القضايا ذات العلاقة بالحضارة الإسلامية، وقضايا النهضة والفكر والتربية، والعمل الدعوي.

وللدكتور بكار حوالي ثلاثين كتابًا في هذا المجال؛ لقي الكثير منها رواجًا واسعًا في مختلف دول العالم العربي، كما قدم د. بكار للمكتبة الصوتية أكثر من مائة ساعة صوتية مسجلة ومنشورة في مكتبات التسجيلات الصوتية.

- وفيما يلي قائمة بالكتب والدراسات الأكاديمية المتخصصة:

١ - أصول توجيه القراءات ومذاهب النحويين فيها حتى نهاية القرن الرابع الهجري، بحث غير منشور، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

٢ - ابن مجاهد شيخ قراء بغداد، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية بالقصيم، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)

٣ - تحقيق كتاب: « القواعد والإشارات في أصول القراءات »، للقاضي أحمد بن عمر الحموي، دار القلم، دمشق، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

٤ - الصفوة من القواعد الإعرابية، دار القلم، دمشق، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

٥ - تحقيق كتاب « رد الانتقاد على الشافعي في اللغة » للإمام البيهقي، دار البخاري، بريدة، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

٦ - أثر القراءات السبع في تطور التفكير اللغوي، دار القلم، دمشق، (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).

٧ - المهدوي ومنهجه في كتابه الموضح، دار القلم، دمشق، (١٤١١هـ/ ١٩٩١م).

٨ - ابن عباس مؤسس علوم العربية، دار السوادي، جدة، (١٤١١هـ/ ١٩٩١م).

٩ - دراسة لإنشاء مركز لتعليم اللغة العربية، كلية اللغة العربية بأبها، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).

- أمَّا الكتب التربوية والفكرية الصادرة للدكتور بكار؛ فمنها الكتب التالية:

١ - فصول في التفكير الموضوعي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).

٢ - نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي، دار المسلم، الرياض، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

٣ - من أجل انطلاقة حضارية شاملة، دار المسلم، الرياض (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

٤ - مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، دار المسلم، الرياض، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).

٥ - مدخل إلى التنمية المتكاملة، دار المسلم، الرياض، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

٦ - في إشراقة آية، دار هجر، أبها، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

٧ - من أجل شباب جديد، بحث منشور في وقائع المؤتمر السنوي للندوة العالمية للشباب الإسلامي، عمّان، (١٤١٨هـ/١٩٩٨م).

٨ - حول التربية والتعليم، دار المسلم، الرياض، (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

٩ - العولمة، دار الأعلام، عمّان، (١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م).

١٠ - القراءة المثمرة، دار القلم، دمشق، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

١١ - العيش في الزمان الصعب، دار القلم، دمشق، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

١٢ - هي هكذا، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

١٣ - مسار الأسرة، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

١٤ - القواعد العشر، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

١٥ - التواصل الأسري، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

١٦ - تكوين المفكر: خطوات علمية، دار السلام، القاهرة، (١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م).

رقم الإيداع

٢٠١٠/٩٩١٢

الترقيم الدولي I.S.B.N

978-977-342-890-7

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

نشكر لك اقتناءك كتابنا : « المشروع الحضاري : نحو فهم جديد للواقع » ورغبة منا في تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ ، وباعتبار أن رأيك مهمٌّ بالنسبة لنا ، فيسعدنا أن ترسل إلينا دائمًا بملاحظاتك ؛ لكي ندفع بمسيرتنا سويًا إلى الأمام .

*** فهيًا مارس دورك في توجيه دفة النشر باستيفائك للبيانات التالية :-**

الاسم كاملًا : .... **الوظيفة :** ....

المؤهل الدراسي : .... **السن :** .... **الدولة :** ....

المدينة : .... حي : .... شارع : .... ص.ب :............

هاتف : ☐☐☐☐☐☐☐ / ☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐ : e-mail

- من أين عرفت هذا الكتاب ؟

☐ أثناء زيارة المكتبة ☐ ترشيح من صديق ☐ مقرر ☐ إعلان ☐ معرض

....

- من أين اشتريت الكتاب ؟

اسم المكتبة أو المعرض : .... المدينة .... العنوان ....

....

- ما رأيك في أسلوب الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ ممتاز (لطفًا وضح لِمَ) ....

....

- ما رأيك في إخراج الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ متميز (لطفًا وضح لِمَ) ....

(من أجل تواصل بنّاء بين الناشر والقارئ)

(من أجل تواصل بناء بين الناشر والقارئ)

- **ما رأيك في سعر الكتاب ؟** ☐ رخيص ☐ معقول ☐ مرتفع

(لطفًا اذكر سعر الشراء) .... العملة ....

- **هل صادفت أخطاء طبعية في أثناء قراءتك للكتاب ؟**

☐ لا يوجد ☐ نادرًا ☐ يوجد أخطاء طبعية

لطفًا حدد موضع الخطأ ....

عزيزي انطلاقًا من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطوير وباعتبارك من قرائنا فنحن نرحب بملاحظاتك النافعة . . . فلا تتوانَ ودَوِّن ما يجول في خاطرك : -

....

دعوة : نحن نرحب بكل عمل جاد يخدم العربية وعلومها والتراث وما يتفرع منه ، والكتب المترجمة عن العربية للغات العالمية - الرئيسية منها خاصة - وكذلك كتب الأطفال .

عزيزي القارئ أعد إلينا هذا الحوار المكتوب على

e-mail:info@dar-alsalam.com

أو ص.ب ١٦١ الغورية - القاهرة - جمهورية مصر العربية

لنراسلك ونزودك ببيان الجديد من إصداراتنا

الكتاب في سطور

أعتقد أننا واهمون في تصور فيزياء التقدم ومحرضاته؛ حيث أرى أن المطالبة ببلورة مشروع حضاري لا تعدو أن تكون سفسطة كلامية لا تنطوي على أي مضمون ذي قيمة حقيقية. ونقول في تفنيد هذه الفكرة: إذا كان المراد بالمشروع الحضاري مجموعة الأصول والمبادئ الكبرى التي تحكم عمل الحكومات والمؤسسات، وتنظم العلاقات بين الناس، وتفعِّل جهود الأفراد في تجويد الأداء؛ فإن هذا كله متوافر في الإسلام عقيدة وشريعة وآدابًا، وعلى أساسه قامت حضارة الإسلام المجيدة. وحين توقفت تلك الحضارة عن العطاء كانت تلك المبادئ والأصول تدرس في الكتاتيب والمدارس والحلقات التعليمية، بل إنه لم يكن يُدرَّس غيرها فيها - في كثير من الأحيان - ولم يكن في الساحة الإسلامية ما ينافسها.

الناشر
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية
هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢
فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)
الاسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣+)
www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com


ISBN: 978-977-342-890-7


حصريات
مجلة
الابتسامة